

فلسفة الجد والهنزل

لأبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ

قدم له وشرح لغيره
الدكتور الشيخ محمد علي الزعبي



دار الفکر للطباعة والنشر
والطباعة في بيروت، لبنان
طابع في بيروت
المطبعة الحديثة للطباعة والنشر

تحتوي جميع المجلدات
على النص الكامل
المكتوب
المكتوب
المكتوب
المكتوب

مقدمة

شجرة من منجم الجاحظ أو رميلة من ساحل ابن بحر

لا أدري بأي ناحية من نواحي أبي عثمان عمرو بن الجاحظ
أبدأ ، وكل نواحيه جديرة بالإعجاب فمن راجع كتبه ازداد
توقفاً وتهيباً وإعجاباً كلما ازداد استيعاباً وإطلاعاً ، فكأن اللغة
اسلته دقتها ومنحته زمامها وبقيته على الطاعة ، فتصرف بها
دون أن يخشى عثرة ولا كبتة ، وأرانا لكل بحث ألفاظاً
ولكل حقل اصطلاحاً ولكل مدخل فكر مفتاحاً و (لكل
مقام مقالاً) !

ولذا أخذت هذه الروحة قلب ابن العميد فأنطقته كلمته
(كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً) إذ رأى بكل
سطر ما يحمل على الاستزادة فأخرجه جبار نثر وأسلوب في
قديم تاريخنا وحديثه .
ولئن كان مجموع الناس لا يعرفون عمرك أبي عثمان فإن جميعهم

يعرفون اسمه ويعرفون تنقاً عن البصرة ، العش الذي درج منه
ابو عثمان وأترابه اعلام العرب وخذام لغتهم وديوان شعرهم
وواسطة العقد بين جاهليتهم واسلامهم لأصمعي والحليل
واللارزي وابن دريد ...

اصعد وانظر السماء

مزح ابو عثمان - كعادته - مع امرأة طريفة قائلاً : (انزلي
كلي معنا) فأجابته (وكان قصيراً دميماً) (اصعد وانظر
السماء) :
ما أجدرنا نحن الذين (شغلنا أموالنا وأهلونا) وحالت
بيننا وبين التمتع بتركة ابي عثمان وقادتنا الدنيا بسلاسل مادتها
وأحككت على أعناقنا أكفاناً صفيقة سداها الأنايات والمحتا
مطالب الجسد ودفنتنا في نواويس الرجاء المتهار الخيفة ،
ما أجودنا بتعطيم هذه السلاسل وتزريق تلك الأكفان
ومحاربة تلك النواويس ، لنشعر ونخرج منتصرين ظافرين
وتصعد ونرى السماء .
سماء الفكر الخالد ، سماء أبي عثمان الذي مثل دور المرأة
فعمس علينا صورة عصره وجناء شعاعها دائرة المعارف

الجاحظية التي أودعها فكره - أن صيتره مداها وأطلقه بين
النفع (ليملا الدنيا ويشغل الناس) !
مساكين !

مساكين الشعراء الذين لا يتركون ألسنتهم إلا اذا لمسع
أمامهم أو في خيالهم المال ، ساعهم الله إذ هم (في كل واد
يسمون ويقولون ما لا يفعلون) على قلوبهم في بعض الملوك :
هو البحر من كل النواحي أتيته

... فلبثه المعروف والجود ساحله
ساعهم ، إذ لو أدركوا معنى خلود الفكر وفلسفة العقل
الحالد وحلثوا فوق المغربات الموقنة لادخروا هذا الوصف
للبحر وابن البحر أبي عثمان الذي أغرقهم وأغرق سواهم من
العرب والعجم ببحر من الفكر عذب فرات لا يزال يمتد
القواصين بلؤلؤ الفكر ومرجان التحقيق .
اجل ، محيط بحرك الفريد أبا بحر يصلح للغوص والعموم
في كل زمان ومكان فهو جديد قديم يسير الدهور ويعيش
العصور .

لقد سبقت ابن خلدون في تصنيف الرواة وعلمته كيف
يتخذ التحقيق وسيلة للتمحيص والتصفية ويسقط على معرفة
العلل والأسباب ليصدر الحكم المبرم على مستقبل الأمم ويعمل

ارتفاعها وهيوطها !

وسبقت ذوي المذهب الفلسفي التجريبي وعدلت الفكر
السوفسطائي الذي اتخذ الشك وسيلة لهدم القيم ومرتنت من
بعدك أمثال الغزالي وديكارت على اتخاذ الشك درجة أولى من
سلم اليقين ، فاستعنت بالحواس ، بعد أن جردتها من العصمة ،
ولجأت للتجربة والعيان وجعلتها شرطاً سادساً لدرجات اليقين
الأفلاطونية الأربعة !

وسبقت علماء الطبيعة الذين لا يقررون شيئاً إلا بعد
تجربته والتثبت من صحته واستنتاج قوانينه من ظاهراته التي
لا يرقى لها الرب ، ففرت وحدك في ميدان رهات خيول
الحلبة وأصبحت كلكتك (ليس يشفيني إلا المعالجة) مصباحاً
يسير بضوئه ذوو الفكر البعيد والنظر الثاقب من علماء الطبيعة
والكيمياء وعلم النفس بل أصبحت دستوراً للأعلام ومنهاجاً
للأساطين .

الغابطلون والحاسدون

لقد فقت (لا سيما في كتابك الحيوان) ما جاء به أرسطو
ووضعت يدك على أخطاء لو زأما الذين ينتظرونه بعين العصمة
لكفكفوا من غلوائهم ووقفوا طويلاً إزاء قولك (زعم

صاحب المنطق) ! بل عاجلت ما لم يعالجه أحد من السلف ولم
يعرفه بعض الخلف إلا منذ أخذت الشمس تشرق من مغربها
وتتكرر لشرقها الطبيعي وتتلأهي أنها عيال عليه لا سيما في
بحث الحيوان .

ولذا غبطك عليه السابقون واللاحقون والمعاصرون
وسيفيطك الآتون وسينشدون مع الزمن (الفضل للمتقدم)
وحسدك عليه محبو العاجلة وفضحوا أناهلهم حقداً وماقوا
غيطاً وكمداً .

ولا غرابة فانت ابن البحر الذي سواحله الطرائف
واللطائف ومرجانه كتابا (الحيوان ، والحاسن والأضداد)
وما اليها من الكتب القيمة .

اجل حسدوك وتهيبوك وما ان انقضى عليك ثلاثة أيام
في ديوان الخاصون حتى كان شعارهم (ان ثبت الجاحظ في هذا
الديوان أقل نجم الكتاب) ولذا اشبعوك لسعاً ونهشاً وقضم
لحم وإساعة دم فخرجت زاهداً بالحطام مسجلاً على سببائه
عابديه : (شعارهم الملق قد لبس قلوبهم الرعب وألقها الذل) .

ثم مات الغابطلون والنساحشون واللاسعون واللدغون
وعشت وحدك في قلوب الذين يقدرون الفكر والسبق !
لقد عرقت الحاسدين بسيلهم وتغلغل في أعماق نفوسهم ففقدت

بقواعدك الكلية : (وما لقيت حامداً إلا تبين مكنونه
بتغيير لونه وتحويص عينيه) .

فنفذت لما يكونون وكشفت ما تنطوي عليه صدورهم
وزحمت اغطية قلوبهم واذعت ما يدور في خلدكم فنحننا حجب
الصانع الذي يعرف به سليم النقد من زائفة واعدت لأذهاننا
مغزى بيت أبي العتاهية :
ثوب الرباء يشف عما تحته

وإذا التحفت به فإنك عار
بل شرحت معنى كلمة (المعاصرة حرمان) فكنت إذا
ألفت كتاباً نفيساً ونسبة لنفسك رأيت من الحاسدين إعراضاً ،
وإذا ألفت كتاباً واذعته خطيراً ونسبته لسواك - ولو من
الذين لا يبلغون شأوك - وجدت من أولئك اللاذعين الموثورين
اقبالاً وتشجيعاً بل تقريظاً وإطراءاً !!

لعمري يا أبا بحر ، أي موضوع تطرقه ، أي بحر متلاطم
لم تحضه ، لقد كتبت في جلائل الأمور : (الحيوان ، الفلسفة ،
الحساب ، الهندسة ، علم النفس ، الفلك ، الأدب ، اللغة ،
الاخلاق ، اصناف الانسان) ... ولم تنس الضحك والاضحاح
والتهكم وما يستعذبه القارئ والسامع ويتخذانه عصا
يتوكلان عليها لتجديد النشاط وطرد الملل والسأم ،

فكأنك أبو القلم واخ الفرطس وأبو يحدة - أو شيخ
يحدة = الفكر .

ولا عجب فقد تبثت للعلوم مذ رأيتك تمحو اللوح في
الكتاب بأتملك الناعمة ثم زعرت وأصبح هلالك بـدرأ
منتقلاً من حلقة حلقة ومن سارية مسجد لسارية واستجبت
هاتف النهم العلمي وضربت أكباد الإبل طالباً محققاً حريصاً
على اقتناص الفوائد وتقييد الشوارد هابطاً أغوار بلاد العرب
صاعداً شقاها ونجودها معرجاً على دمشق ومصر وانطاكية
والاناضول لا ترى كتاباً إلا تستوفيه قراءة وتستوعبه ادراكاً
مسجلاً قرناً من العمر يذكرنا بالكلمة النبوية (خيركم من طال
عمره وحسن عمله) ثم جعلت ختام الحياة مسكاً فأخذت
تستأجر حوانيت الوراقين (المكتبات) لتسقط اكداًس
الكتب على جسمك الذي ارمقته فأخذ يموت نجومياً (تقسيطاً) !
وتكتب بدمك وبقياسك انعامك درساً نقش في سجل العقل
الكلي .

اجل شذرة من منجمه ورميلة من ساحله اذ ليس لشيء ان
يعرف بالاعلام لا سيما وأبو عثمان في غيلة كل من تمتع ولو ببعض
الذوق العلمي وسقط على تعريف الأدب .

ولا اعني بكلمة الأدب هنا ما يعنيه الاصطلاح المعاصر الذي يرى من زاول القريض او مارس المقامات وجبر المقالات أدبياً ، بل ما يعنيه القدماء اذ يرون كلمة صالحة للاطلاق على من ساهم بعدة فنون وعرف من كل فن احسنه .
 لعمرى ومن اجدر من ابي عثمان بهذا اللقب الا تعجب حين تقرأ له عشرة المواضيع وتتخيل حين مطالعة مطلق موضوع ان كاتبه لا يعرف سوى الفن الذي عاجله !
 بل الا يتضاعف عجبك واعجابك حين تعلم ان ابا عثمان امدنا بعشرات الكتب والرسائل وتراه مكتبة كبرى تجسد رجلاً او رجلاً استوعب مكتبة .

هذه الرسائل

هذه الرسائل التي نفخر بتقديمها الآن للقراء ، صيد - من أجرة الجاحظ - من غداء من حقه نفيس وسارية يرفرف عليها علكم البيان ودعامة يعلوها مصباح ينير البصائر واسطر يكن بها تعبوسليم وسبك بليغ وتوجيه قويم ، ونواة تتجسد نخلة المروءة وكرم النفس ونبل الشعور .
 هذه الرسائل تذكر بتعريف البلاغة : (الكلام البليغ هو الذي اذا سمعه الشخص اخل انه يستطيع الاتيان بمثله) .

هذه الرسائل خالية من التعقيد اللفظي والمعنوي ، كأنها سبقت اسلوب هذا العصر الذي يحرص على أداء المعنى برثا من التكلف الذي غزانا بمصور الضعيف والانحطاط وانتزع من ايدينا لذة قذف المعنى بنفس سامع بكلمات موجزة سهلة .
 أنظر الايجاز وبلوغ المراد بأن واحد كامين بهذه الرسائل مرسومين بريشة ابي عثمان بهذا النص (الصدق والوفاء توأمان ، والحلم والصبر توأمان ، بين تمام كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهن سبب كل قرينة وأصل كل فساد ، ولعمرى ما غلظت الحكماء حين سميتها اركان الدين) .

هذه الرسائل خلاصة ما عرفته الأجيال التي سبقت الجاحظ والتي تلتها من الحكمة والهداد والنصح المنبثق من وعي وتجربة ، وما يزيد في رونقها ويضاعف جمالها ، ترصيمها بالآيات الكريمة وزركشتها بالاحاديث الشريفة والاستشهاد بها استشهاداً يكاد يريك إياها انزلت خصيصاً لما اراده الجاحظ ، هذا الى جمال الاسلوب وروعة التركيب فكأنك حين مطالعتها تعد الدنانير التي لم تخالطها الزوف !
 واني اتحقق ان الناس لو عثروا على هذه الرسائل منذ قرون

لأخفوها بالكتب التي لا يستغني عنها أديب أو مثاوب واتخذوا
العشور عليها دينهم والسقوط على ضالتهم .
هذه الرسائل جوهرة مكنونة لم يزدها مر السنين مخدرة
الأصفاء ولعائناً ، وقد مرّت الدهور والأعصر وهذه الجوهرة
دقيقة الاصداف خزانة المكتبات حبيبة الحريصين على اقتنائها ،
ثم استدار الزمن فأخرجت الأرض دفائنهما والاصداف
مكنوناتهما والحزن حباثتها فخرجت المكنونة اليقيمة تذكرنا
بقول الحريري :

وطالما أصلي الباقوت جمر غضى

ثم انطفئ الجمر والباقوت باقوت .

هذه الرسائل آية في الاسلوب اليتيم والسهل الممتنع ، ولئن
شاهد القارئ بعض ألفاظ قد تعقد المعنى أو تعثر السير
وتعترض السياق ، فارجو ان يراها من يد النساخ الذين أصبحت
تركة الجاحظ بينهم مشاعاً وقد كفرنا عن أخطائهم بالتحرز
منها .

ولا بد لنا في الختام ان نستوقف القارئ إزاء نقطتين :
١ - ان العطاء امثال أبي عثمان ، اذا كتبوا تصيعة او

توجيهاً او تقويماً لشخص ما لا يقصدونه وحده بل يودون لو
أصبح ما كتبوه دواءً يتنارله كل من انتابه ما انتاب المقصودين
به اولاً ، أو إكسير يتقذ الدين عضهم فاب الجهل أو عيـدم
التجربة ومصباحاً ينير السبل ويطرده الظلمة وينشر من اجداث
الخيوة ويقلل من ثرات التردد .

فاذا ما وجهه أبو عثمان رسالة لابن أبي دؤاد أو سواه ،
فإننا لا نراها وقفاً على من وجهت له او لهم بل نراها أشعة
شمس تغشى القصور والنجوم والأغوار واليباب وخبوط فجر
يتلقاها السارون والمسلجون والمعزّسون .

٢ - إن يد التطور وقانون تغيير الاحكام بتغيير الأزمان
لا تنال من النواميس الثابتة الخالدة مثل (الصدق فضيلة ،
الجهل منقصة ، الاسراف مثقلة ...) فاذا شاهدنا ابا عثمان
يحض على التمسك بمكارم الاخلاق ويحذر من مقبلة
التدهور والزلق ... فلا ينبغي لنا ان نقول : كان هذا دواءً
لعرصه ، ومثل دور السوفسطائيين الذين هدموا النواميس
الثابتة بمول التأويل ومسحوا عار الانحراف والتفاضل بقاعدة
(لا ينكر تغيير الاحكام بتغيير الأزمان) اذ نواميس الاخلاق
كنواميس الطبيعة .

عند الرسائل ، أسماؤها ، موضوعها

أربع رسائل تدعى :

١ - رسالة المعاد والمعاسن ، في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم .

٢ - رسالة كتمان السر وحفظ اللسان .

٣ - رسالة في الجد والهزل .

٤ - رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .

هذه الرسائل الأربعة يشعلها اسم (رسائل في الأخلاق الحمودة والمذمومة) أرسلها أبو عثمان لابن دؤاد وابن الزيات لتكون دستوراً أخلاقياً ومصباحاً اجتماعياً يستضيء به هذان الوزيران ومن نهج نهجها في تدبير الممالك ، إذ الأخلاق ، كما يراها علماء الأخلاق سارية يرتفع عليها علم الأمة ما زالت قوية مدعمة بالمكارم وينخفض ويهيبس جناحها ما جنحت وتكبت النهج القويم والصراط المستقيم .

ولا يد لنا - قبل تقع الفلة رسائل الأخلاق - أن نأخذ لحظات من وقت القارئ لنقف على شيء من تعريفها لفظة واصطلاحاً .

الأخلاقي ، لغة واصطلاحاً

الخلق (يفتح الحاء) هو التركيب العضوي أو اليلدين أو

الجبلي كيباض البشرة أو سوادها أو خلاستها ، أو طول القامة أو قصرها ، أو سواد العين أو زرقتها ، وما إلى ذلك من صفات حسية .

أما الخلق (بضم الحاء) فبمعنى ما تصفه به (قوي الصدر الرحب أو الضيق أو السهل اللين ، أو الوعر القاسي ...) وما إلى ذلك من صفات معنوية .

ومع اتفاق الباحثين في كل زمان ومكان على أن الله أودع في الإنسان وكيلاً عنه (العقل) وجهزه بما ندعوه مكارم الأخلاق ، اختلفت كلمتهم في تحديد أو تعريف كلمة أخلاق فدعاهم بعضهم : علم العادات ، علم السلوك ، علم الخير والشر ، علم الواجبات ، علم القواعد التي تحمل على فعل الخير وتجنب الشر وتدفع للمثل العليا ، علم القواعد التي تسيّر عليها الردة المرء الكامل في أعماله ليصل المثل العليا ... ثم أوجزوا التحديد والتعريف قائلين (قواعد عملية تحدد سلوكنا وتوجهنا لما نفعل بأحوال مختلفة) .

والأخلاق ، على مطلق تحديد أو تعريف ، أعمال إرادية صادرة عن تفكير ندعوه تخميراً كحركة يد الشخص السليم ورجله ولسانه ، أي تشمل ما يقتضي ثوباً أو عقاباً ، أو مدحاً أو قدحاً ، ولا تشمل بحال عما ، ما ندعوه تسييراً ،

كحركات القلب ورمش العين وحركات الطفل وحركات المريض : جسماً او عقلاً .

هل الاخلاق علم مستقل ؟

بحث الاخلاق ذو صلة وارتباط بسواه لا سيما بعلم النفس ، اذ لا بد لنا - كي نحكم على خلق ما - من دراسة ما يعرفه علماء النفس باسم : الاحساس ، الرغبات ، الارادة ، الميول ، الشعور ، العواطف ، اللذة ، الألم ... هذا بالإضافة للفرائض المملومة .

الاخلاق وسيلة لا غاية

دراسة الاخلاق والخروج بها من دائرة النظريات للمعاملات وسيلة من وسائل التهذيب والنجاح - الفردي والاجتماعي - قد نتوصل له بطرق كثيرة كمعرفة تراجم الناجحين وقد نخفي بعض ما بنفوسنا خسية السنة المجتمع او طلباً للتصديقية .

علاقة الاخلاق بالعادات

مهمة عالم الاخلاق شاقة ، اذ لا بد له من دراسة العادات والطقوس والعقائد لدى مختلف الشعوب ، فقد ترى امة ما

خلقاً مستهجناً ، وهو لدى سواها مألوف .

مثلاً ، زواج الشخص بأصوله وفروعه : (امهاته وبناته) مستهجن لدى جل الشعوب وخلق سيء وعادة تقزقرز النفس ، ولكنه لدى بقايا الجوس ليس مستهجن بل مبارك يشمر ذرية ذكية !

وهنا يقف عالم الاخلاق مشروهاً مكتفياً بالقول : هناك اخلاق راسخة بالضمير العام كاستهجان الكذب ... وهناك اخلاق يختلف استهجانها او استهجانها باختلاف الزمان والمكان .

الفرق بين الأخلاق والعادات

الاخلاق ناموس ثابت لا يتغير ولا يتبدل باختلاف الزمان والمكان ، أما العادات فناموس طارئ قد يزور قوماً ثم لا يلبث ان يفارقهم .

فالصدق واحترام الآيين واحترام حقوق الناس : اموالهم وأعراضهم ودمائهم ... ناموس ثابت جاءت به جميع الأديان السبوية وأنست به الأنظمة الوضعية واستقبله علماء الاخلاق بالترحيب .

أما العادات ، الناموس الطارئ ، فينبغي إحالتها الى محكمة

النتائج ، فما أثر منها خبيراً لمن زاولها أو أسرته أو قومه
أو الأسرة الانسانية الكبرى ، ينبغي إلحاقه بالأخلاق التي
دهماها الجاحظ محدودة ، وإلا فيجب تسجيلها في سجل
الذمومات .

الأخلاق ميزان الشعوب

الشعوب - ولو كانت منحرفة في عقائدها الروحية - إذا
استقامت أخلاقها - ولو الاجتماعية كالتضحية في سبيل المجموع
والإخلاص للوطن وخدمته على ضوء الثقافة ، والفهم السليم -
شعوب سجلت لنفسها السيادة - في بلادها على الأقل - !
أما الشعوب التي استقامت عقائدها الروحية وسلمت أخلاقها
الفردية ومرضت الاجتماعية فضحت المجموع في سبيل أذانيات
الأفراد وخدمت المصالح الخاصة مستترة بالعامه ، أو خدمت
العامه غير مستنيرة بالثقافة والفهم السليم ، فشعوب حكمت على
تنفسها بالبقاء في الرعيل الأخير من قافلة الانسانية ، ولن يتغير
واقعا إلا إذا استأنفت السير .
والأخلاق ، آخر حلقة من سلسلة الشوط الحضاري يقول
علماء الاجتماع : (إذا كانت الأمم في الحرف الأول من أجيادية
تكوينها تفاخرت بالقوة الجسدية فإذا تجاوزته تفاخرت بالعلم

وإذا قالت منه تفاخرت بالأخلاق) .
والأخلاق رأس مال الفرد والجماعات إذ هي خاتمة مكاف
العظمين ولذا مدح الله خاتم الرسل بقوله (وإنك لمسلم خلق
عظيم) وصرح بأن المقصود البعيد من رسالته الخالدة تقويم
الأخلاق وتجديد ما طمس منها (إنما بشت لأنهم مكارم

الأخلاق) .

وقال أمير الشعراء :
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فاقم عليهم مائماً وعويلاً

لا استدرالك

ليس لثلي حتى الاستدراك على أبي عثمان ولو بإيجاز مسبب أو
إسهاب موجز ولكنها أسطر لا تعدو التعليق على بعض الكلمات
القوية أو الاصطلاحات الفلسفية التي أرسلها أبو عثمان بعصر كان
يرى فيه جميع قرائه أو أكثرهم يدركون مقاصده .

ثم بعدت الشفة وتعايرت الاصطلاحات والمفاهيم فاستأذنت
روح أبي عثمان شهيدة البحث والتقيب ولا أراها - وهي في
دار الخلود - إلا مستجيبة إذ هي أشد مني حرصاً على نشر
الفكر الناطق وتعميمه .

وما أنا ذا - حرصاً على وقت القارئ وعملًا بتوجيه بعض

فلسفة المعاد والمعاش

في الأدب وتدير الناس ومُعاملاتهم

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وأبقاك وأمتع بك . (*) إن جماعات أهل
الحكمة (١) قالوا : واجب على كل حكيم أن يحسن الارتداد
لموضع البغية * وأن يتبين أسباب الأمور ويحكم لمواقبها .
فإنما تحدث العلماء بحسن التثبت في أوائل الأمور * واستشفائهم
بعقولهم ما تجيء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما
تقول به الخلات في استدارها ، ويقدر تفاوتهم في ذلك تستبين
فضائلهم . فأما معرفة الأمور عند اكتشافها ومسا يظهر من
خفياتها ، * فذلك أمر يعتدل فيه العاقل والفضول . * والماللون
والجاهلون .

* ابتدأ رواية م (١) :

أقطاب الأدب وتزولا عند رغبة الناس ، أعلق على الكلمات
التي أراها جديدة بالشرح والتعليق مكثفياً بوضع رقم إزاء
المواضع يأخذ بيد القارئ لشرحها الذي جعلناه مسك الحتام .
فكلمة الحكمة في الصفحة الأولى مثلاً أخذت رقم (١) في
الأصل والرقم نفسه في التعليق وهكذا دواليك .

(١٠) واني عرفتك - *أكرمك الله - في أيام الحداثة وحيث سلطان اللهو *المُخلق (٢) للأعراض أغلب على تطرائسك وشكر الشباب والجنة المتحقيقين للدين والمروءة *مستول على هياتك ، فاختبرت أنت وهم ببسطة المقدرة ونجتها الحداثة يطول الجنة ، مع ما تقدمتهم فيه من الواسعة في الصورة والجمال في الهيئة . وهذه *كلها أسباب *تكاد توجب الانقياد للهوى *ويخرج من المبالك لا يسلم منها الا النقطع اللبرين في صحة العطرة وكال العنق . فاستعبتهم الشهوات حتى أعطوها آزمنة أديانهم وسلطوهمسا على مروءاتهم وأدأحوها أعراضهم ، فقلت يا كثرهم *الحال الى ذل العدم وفقد عز العنى في العاجل مع الندامة الطويلة *والحسرة في الآجل .

وخرجت مسيح وحدك *أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك (٣) - وهو عقلك - على هوالك وألقيت الية آزمنة أمرك ، فسلك بك طريق السلامة وأسلمك الى العاقبة المحصودة ، وبلغ بك من نيل *الذات أكثر * مما يلعبوا *موغال بك من الشهوات أكثر مما قالوا * وصرورك من *صنوف النعم في أكثر مما تصرفوا ، وربط عليك من نعم الله التي شورك

*أيديهم ورواية عب .

ما أطلقه من أيديهم إشار اللهو وسليطهم الهوى على أنفسهم ، فغاض بك تلك اللعج واستنقذ من تدك لمطلب ، فأخرجك سليم الدين واقر المروءة نقي الرخص * كثير البرآمن الجنة . وذلك سبيل من كان ميله الى نه أكثر من ميله الى هواء * ولم أرل في أحوالك تلك كله بعصيتك عرفاً وذك * بنعم الله عندك غديلاً (٤) ، أرى ظواهر أمورك *المحمودة * قدعوي الى الانقطاع اليك وأسأ عن بواطن أحوالك فتريدني رغبة في الاتصال بك ، *أريقداً (٥) متي لموضع الخبرة في الأخوة ، والنجاسة لإصابة * ، لاصفده في المودة وتجبر المستودع الرجا في التوبة (٦) . فلما محصنتك الخبرة * وكشمتك الابتلاء عن المحمدة * وقضت لك التجارب والتقدمة وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والحبسة وقطع الله عذر * كل من كان يطلب لاتصال بك ، *طلبت الوسيلة اليك والاتصال بيجلك ، فنت محرمة الأدب ودمام كرمك . *وكان من نعمة الله عندي ان جعل *أبا عبد الله - حفظه الله - وسليق اليك ، فوجدت المطلب سهلاً * والمراد محموداً ، وأفضيت الى ما يجوز الأمنية *وبفوت *الأمسل . فوصلت *اخائي بمودتك وخلطتني بسلك وأسمتي * في مراعي ذوي الخاصة بك ، تفضيلاً لا مجازاة *وتطولا لا مكافاة . فأمنت الخطوب واعتليت على الزمان ،

واتخذت لك للأحداث عدة ، ومن نوائب الدهر حصناً منيعاً .
فلما حزت المؤبسة ، وتقلب من فضلك في صنوف النعمة ،
وزاد بصري من مواهبك في السرور والخبرة ، أردت خبرة
المشاهدة فيلوت *أحلافك* ، وامتعت شيمك ، وعجمت (٧)
مذهبك على حين غفلاتك وفي الأوقات التي يقل فيها تحفظك ،
اراعي حركاتك وأراقب مخارج أمرك ونهيك ، فأرى* من
استفارك لعظيم النعمة التي تتم بها واستكثارك لقليل
الشكر من شاكريك ، *ما أعرف به - * بما قد نلت من
غيرك ما قد شهدت* لي به التجارب - ان ذلك *منك* طبع
غير تكلف . هيات ما يكاد ذو التكلف أن يخفى *على العبادة
كيف على مثلي من المتصفحين* (٨) . مرادني المئانة فيك
رغبة وطول العشرة لك محبة ، وامتحاني أفعيلك لك تقضيل
وبطاعتك دينونة . *وكان تمام شكري لربي ولي كل نعمة
ولمبتدي بكل احسان ، الشكر لك* والقيام بمكافأتك بما
أمكن من قول *وقعل . لأن الله تبارك وتعالى نظم الشكر
له بالشكر* الذي النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلها الا معاً ،
لأن أحدهما دليل على الآخر *وموصول به . فمن ضيع شكر
ذي نعمة من الخلق فأمر الله ضيع* وبشهادته استحققت . *والقد

*أه رواية (١) .

جاء بذلك الخبر عن الطاهر *صادق* صلى الله عليه وسلم
*فقال : *من لم يشكر للناس لم يشكر لله . ولعمري إن
ذلك لموجود في المطرة قائم في العقل ، أنت* من كفر نعم
الخلق كان لنعم الله أكفر . لأن الخلق يعطي بعضهم
بعضاً بالكلفة والمشقة وثقل المصيبة على القلوب ، والله يعطي
*بلا كلفة . وهذه العلة جمع بين الشكر له والشكر لدوي النعم
من خلقه .

فما وجبت *عني* الحجة لنكرك *وقطع عذري في
مكافأتك ، اعترفت* بالتقصير عن تقصّي ذلك . إلا* أني
بسطة* لثاني بتقريظك ونشر محاسنك ، موصول* ذلك
عندي لأذان السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها . وقد
رؤي* عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من
أودع عرفاً فليشكره ، فإن لم يمكنه فليشره ، فإذا نشره فقد
شكره وإذا كتبه فقد كفره » (٩) .

ثم قد رأيت أن قد بقي عني* أمر* من الأمور يمكنني فيه
يربك* هو عندي عتيد وأنت عند غير مستغن والمنفعة لك
فيه عظيمة عاجلة وآجلة ، *إن شاء الله .

*أه رواية به .

(*) ولم أزل - أبقاك الله - بالموضع الذي قد علمت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقيين ، من جميع الأمم وكتب أهل الملل . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم . وعلمت أن ذلك من أعظم ما أمرك به وأرجح ما أتقرب به إليك ، وكان الذي حداني على ذلك مبني رأيت الله أقسم لك من العقل والفهم ورمكتب فيك من الطبع الكريم . وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب . ومثلوا ذلك بالنار والخطيب والمصباح والدمن . وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقل غيرك تزيد في عقلك .

ورأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدم في الآداب عهداً ، قاربوا فيها الحق وأحسوا فيها الدلالة . إلا أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروغاً

* انتهاء رواية م (٢) .

لم يبينوا عللها وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها وأموراً محمودة لم يدللوا على أصولها . فإن كان ما فعلوا من ذلك * روايات روتوها عن أسلافهم ووراثات * ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يلبثوا فضيلة من يستنبط . وإن كانوا تركوا الدلالة * على أعيان الأمور * التي بمعرفة عللها يوصل إلى مباشرة اليقين فيها وينتهي إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يعدوا في ذلك منزلة للضن بها . * ولن تجد وصايا أنبياء الله * أبداً إلا مبينة الأسباب مكشوفة العلل مضروبة معها الأمثال (*) .

فألفت لك كتابي هذا (٨) ، وأنا وأصف لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق وفطرت عليها * البرايا كلهم ، فهم متساوون فيها وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون . ثم مبين لك كيف تفرق بهم الحالات وتتفاوت بينهم المنازل ، وما العلل التي يوجب بعضها بعضاً وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول وربما كان الأول ولم يكن الثاني ، وفرق ما بين الطبع الأول وبين

* ١ * رواية م (٢) .

الإكتساب والعادة* التي تصير طبعاً ثانياً* ولم يختلف ذلك وكيف دواعي قلوب الناس وما منها يتمتعون منه وما منها لا يتمتعون منه وما أسباب توازع شهواتهم* وما الشيء الذي يحتال* لقلوبهم به حتى تستال وحتى تؤنس بعد الوحشة وتسكن بعد النفار* وكيف يتأتى لينقض ما فيهم من الطبائع المدمومة حتى تصرف إلى الشيم الحمودة* ورأسم لك في ذاك أصولاً ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه.

وقد علمت أن في كثير* من الحق مشتبهات لا تستبان إلا بعد* النظر والتأمل* وهناك* يحتل الشيطان أهل الغفلة* وذلك أنه لا يجد سبيلاً إلى إختداعهم عن* الأمر الظاهر** فلم أدع من تلك المواضع الحقة موضعاً إلا أقمت* لك بإراء* كل شبهة دليلاً ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة* تستبطن بها غوامض البرهان وتستبين بها* دهن الصواب* وتستشف بها سرثر القلوب* فتأتي ما تأتي عن بينة وتدع ما تدع عن خيرة* ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثير مما يغيب عنك إذا عرفت العلل والأسباب* حتى كأنك مشاهد لضمير كل امرئ* لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه* وعوارض

*** (٦-١) رواية م (٣).

الأمور* الداخلة عليه* ثم غير رأيك بالأصول حتى أتقصي لك ما بلغه علمي من الفروع* ثم لا أرسم لك من ذلك* إلا الأمر* المعقول في كل طبيعة* والوجود في فطرة البرايا كلها* فإن أحسنت ذلك وأقمت على حدوده* ونزلته منازلته* كان عمرك* - وإن قصرت أيامه* - طويلاً وفارقت ما لا بد لك من فراقه محموداً* إن شاء الله.

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا* وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع* وإنما أصول* أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة* فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت* فيه لمعاملة في الدنيا* وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين.

وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط* والحكم ما هنا حكم هناك* ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة* ولذلك* قال الله عز وجل ومن كانت في هدى* أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً* قال ابن عباس في تفسيرها: من كان ليس له من العز ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيا* فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين* فإنما ينتقل بذلك العقل* فيقدر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر.

لأن هذه شامة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد فهو بما عاب عنه أجهل .

فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنه جماع كل خير وسبب كل نجاة ولقاح كل رشد ، هي أسرر حرر وأقوى معين وأمنع جنة (٩) ، هي الجامعة بحبة قلوب العباد * والمستقبلة بك حبة من لا تجري عليهم نعيمك . فأجعلها غدتك وسلاحك وأجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .

وأحذرك ونفسي الله والاعتذار به والإدمان في أمره والاستهانة * بمزائمه والأمن لمكروه . فقد رأيت آثاره في أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عبرة وللغارين مثلاً . وأعلم أن خلقه كلهم بريته ، لا * وصلة بينه وبين أحد منهم إلا بالطاعة : فأولاهم به أكثرهم تزيّداً في طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى (١٠) وغرور . * وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ومهد لك * في تمكين الغنى والبسطة ما لم تتحله بحيلة * ولم تخلقته بقوة ، لولا فضله وطوله . ولكنه مكنك ليلاب خبرك ويختبر شكرك ويحصي سعيك ويكتب أثرك ، ثم يوفيك أجره ويأخذك بما اجتريحت * يدك ، أو يعفو فأهل العفو هو : والله ابتلاء أن في خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة وابتلاء بمصيبة . وبقدر عظمها يجب التكليف * من الله عليها .

فيقدر ما خولك من النعمة بشدتك الشكر . ولو تفصّى الله على خلقه لعدّتهم . ولذلك * قال : يؤيؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من داية . ولكنه قبل التوبة وأقال العثرة وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا ، ميزان قسط وحكم عدل . وقد قال الله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . وهذا مثل ضربه الله لأن الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى * يعقل به وذلك أن أحداً من الخلق لا يخلو من حقوة أو زنة أو غفلة ، فأخبر أن من كانت حسناته الراجحة على سيئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة وطريق الفوز بالإفلاح ، ومن عالمت سيئاته بحسناته كان العطش والعذاب أولى به * وكذلك حكمة في الدنيا ، لأنه * قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة . وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة لصلاح * في أفعالهم وإن هفوا وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور * على * أفاعيلهم وإن أحسنوا في بعض الأمور ، وكذلك تجرت معاملات * الخلق بينهم ، يعدلون العادل * بالغالب من فعله وربما أساء ويفسقون

العاسق وربما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها وإنما يقصى على كل امرئ* بما شاكل أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول حرت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا اختلاف بين الأمة فيها . فلا تعين حظك من دينك . * وإن استطعت أن تبلغ من الطاعة غيتها ففسلك عهد ، وإلا فاجهد أن يكون أعجب * أفعالك عليك طاعة مع الندامة عند الإساءة ويكون ميلك * عند الإساءة إلى الله أكثر ، والله يوفقك .

اعلم أن الله حل ثدؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجتراح المنافع ودفع المضار* ونقض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب وجيلة مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه موجود في الأسس والحيوان ، لم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين . وبقدرة ريادة ذلك ونقصانه تريد المحبة والبنفصاء * كزيادته تميل الطبيعة* معها كميل كفتي الميزان * قل ذلك أو أكثر .

* وهاتان خلتان داخل فيهما جميع محاب العباد ومكارهمهم . والنفس في طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو . ولعل والعلية والاستطراف (١١) * والتنوؤ (١٢) وجميع ما تستلذ الخواص من المناظر الحسنة والروائح العيقة * والطعموم الطيبة

والأصوات الموثقة والملامس اللبيدة وما * كرامته في طباعهم أصداء ما وصفت لك وخلافه .

فهذه الحلال التي يجمعها * خلتان غرائز في الفطر وكومن في الطبع ، حيلة ثابتة وشيعة محبوبة . * على أنها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم * قدر العلة فيه ولكثرة إلا النبي دبرهم . فلما كانت هذه طبائعهم أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم وجعل في ذلك ملاد* لجميع حواسهم ، فتعلقت * به قلوبهم وتطلعت إليه أنفسهم . فتو تركه وأصل الطبيعة - مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهة في طبائعهم - صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطف والتبار (١٣) وإذا ذهب كان ذلك سبباً للعناد وانقطاع التماسل وفناء الدنيا وأهلها . لأن طبع النفس لا يسلس عطية قليل ولا كثير بما حوته ، حتى تعوض أكثر مما تعطي إما عاجلاً وإما آجلاً ، تستلذه حواسها .

فعلِم الله أنهم لا يتعاطهون ولا يتواصلون* ولا يتقادرون إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والسبي غير ناجعين فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذين في * طباعهم . * فدعاهم بالترغيب إلى حشته وجعلها عوضاً عما تركوا في جنب* طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالمار على معصيته وخوفهم بعقوبتها على ترك أمره . ولو تركهم لجل ثنأؤه* والطبع الأول جروا على

سني الفطرة * وعادة الشبهة ، ثم أقام الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازين النصفة ، وعدلهم تعديلاً متفقاً فقال فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .
ثم أخبر * الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدبيره الخلل ولا * جائز عنده الخبايا ، ليعمل كل عامل على ثقة بما وعده وأوعده . فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، فاطرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافقتها ما في الفطرة وأخذها بجميع المصلحة .

ثم جسد أكثر طبعه فيما تستقل النفوس وأكثر معصيته فيما تلذ . ولذلك قل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات » ، * يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره والطريق إلى النار اتباع الشهوات * ، * فإدراكوا لم يصلحوا لخلقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت * لك من الرغبة والرهبة ، فأعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً ، وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها من أمل أو ظن أو رجاء أن أحداً من الخلق - فوقه * أو دونه - يصح له صميره أو يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فلرغبة والرهبة * أصلاً كل تدبير وعليها مدار كل سياسة عظمت أو صغرت . فاجعلها مثلك الذي يحتذى عليه وركبك الذي يستند إليه .

(*) * واعلم أنك * إن * آملت ما وصفت لك ، عرضت تدبيرك للاختلاط . وإن * أثرت الهوينا واتكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه إلا نصرك ، * وزحيت أمورك على علي رأي مدخول وأصل غير محكم ، ورجع ذلك عليك بما لو * حكم فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته وشفاء غيظه .
واعلم أن إجرامك الأمور بخاريها واستعمالك الأشياء على وجوهها ، يجمع لك ألفة القلوب ويعامتك كل من عاملك بمودة * أخذاً وإعطاء ، وهو على ثقة من * بصرك بمواضع الإنصاف وعلمك بموارد الأمور (*) .

واعلم أن * أثرتك على * غير النصيحة والشفقة والحرمة والكفاية * توجب المباحة وقلة الثقة بمن * آثرته أو آثرت عليه . فاعرف لأهل البلاء من سميت بينك وبينه منوذة أو حرمة - من فوقك أو دونك أو نظرائك - أقدارهم ومنازلهم * ثم لتكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق . * ولا تؤثر في ذلك أحد أيهوى ، فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة وتوجب استصغار عظيم النعمة * ويحق فيها الإفضال * وتفسد بها الطائفتان من * آثرت ومن آثرت عليه .

(* *) (١) (٧) واعلم ... الأمور : رواية م (٤)

في المثل :

من لا يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه (*) .

* وقال بعض الحكماء : ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يحذر من معاشرته بدًا * بالعدل والتصفية ، حتى يجعل الله له من أمره قرعاً ومخرجاً .

* فاحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً . وقد ضمنت * لك أوائلها كون أو آخرها * فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنه متى كان الأول منها واجب ما بعده لا يند منه . فاحذر المقدمات التي يعقبها المكروه ، واحذر من على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، * والفتح في السدي أموراً * نتاجها العافية . فمن الأمور التي يوجب بعضها بعضاً : المنفعة ، توجب المحبة والمضرة ، توجب البغضاء والمضادة ، توجب العداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستئصال * وميتابعت * توجب الألفة ، والصدق يوجب الثقة والكذب يورث * التهمة ، والأمانة توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يوجب المسودة وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانسياط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب

ل (١-٦) فأن ابتليت ... صلاحه : رواية م (هـ) .

الوخشة * والكبر يورث المقت والتواضع يوجب الإحقة ، والجود بالقصد يوجب الحمد واليخل يوجب المذمة ، والتواني يوجب التضييع والجدة يوجب رضاء الأعمال ، والهويناء تورث الحسرة والحزم يورث السرور ، والتفريط يوجب الندامة والحذر يوجب العذر * وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، والاستهانة توجب التباغي ، * والتشاغي مقدمة الشر وسبب البوار . ولكل شيء * من هذه الإفراط وتقصير . وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الخلل فيها . يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه ولا مزاحل عنه ، عليه عادة الخلق وبه جرت طبائهم ، ويقام المنفعة بها إصابة مواضعها : فالإفراط في الجود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يورث المذلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يدعو لخلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يورث * ذا النصيحة ، وآفة * الأمانة اثنان الخيانة (١٤) وآفة الصديق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يوفق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، والإفراط في المضرة تبعة على حركك * ، والإفراط في جبر المنفعة يغفل عن أقرطت في نفعه عنك .

واحذر كل الحذر . أن يتخذك الشيطان عن الحزم .

فيمثل لك التواني في صورة التوكل ويسلبك الحذر - ويورثك
الهوينا بإحالتك على الأقدار . * فإن الله إنما أمر بالتوكل عند
انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الأعذار . بذلك أنزل كتابه
وأمرى سنته ، فقال خذوا حذركم * ولا تلقوا بأيديكم إلى
التهلكة . وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إياها
وتوكل . * وسئل ما الحزم ؟ قال الحذر . فتحفظ من هذا
الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرني عليه
النفوس ، ولذلك قالت الحكماء : العادة أملك بالأدب . ففرض
نفسك على كل أمر محمود العاقبة * وضررها بكل ما لا يندم من
* لأخلاق ، يصير ذلك * طباعاً ويسب إليك منه أكثر مما
أنت عليه .

واعلم أنت الذين يوجب لك اسم الجود القيسام * بواجب
الحقوق عند النوائب مع بعض التفضل على الراغبين ، وإذا
وجب لك اسم الجود زال عنك اسم البخل . *
واعلم أنت تشمير المال : آلة للسكرام وعون على الدين
ومتألف للاخوان ، * وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه
والرغبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان
الناس به . فاجهد الجهد كله إلا تزال القلوب معلقة منك برغبة
أو رهبة في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا يقاء منه لكثير ولا تشمير معه لقليل
ولا تصلح عليه دنيا ولا دين * وتأدب بما أدب الله نبيه *
فقال ولا تجعل يدك مخلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل
البسط فتقعد ملوماً محسوراً . وقالت الحكماء : القصد أبقي
للجهام . فداوِم حالك وبقاؤه نعمة عليك بتقدير * أمورك
على قدر الزمان بقدر الإمكان فقد قال الشاعر :

من سبق الدهر كتباً كبوة . يستقيها من خطى بدهر
فخط مع الدهر إذا ما تحت . واجر مع الدهر كما يجري
واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبرار
بالمنطق في * موضعه وعند إصابة فرصته ، وذلك صمتك عند
من يعلم أنك لم تصمت عنه عتلاً ولا رهبة . فليزدك في الصمت
رغبة ما ترى من * كثرة فضح المتكلمين في غير الفرص
وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة .

واعلم أن الجبن * جبنان : الشجاعة شجاعتان : * وليس
تكون الشجاعة والجبن إلا في كل أمر لا تدرى ما عاقبته
يخطر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أدرت الحرم في ذلك فلا
تشجع نفسك على أمر أبداً إذ والذي ترحو من نفعه في العاقبة
أعظم مما تبذل فيه * في المستقبل ، ثم يكون * الرجاء في ذلك
أغلب عليك من الخوف . وهذا منياً موضع يحتاج فيه إلى

المطر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين أو خوفاً لمعار
 'تسب' به الأعقاب' فأنت معذور' باخطأرة فيه بنفسك
 ومالك . وإن كان أمراً تعظماً منفعته لدنياً إلا أنك
 لا تناله إلا بالخطار بمهجة نفسك أو بتعريض كل مالك لفساد
 فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ولكن حماقة بينة عند
 جميع الحكماء . وقد قالت *عصاء* أوائل الناس : لا ترسل
 الساق إلا *ممكاً* ساقاً . وقالوا لا تخرج الأمر كله من يدك
 وخذ بأحد حذيه . ثم لشجاعة' والحسين' في ذلك بقدر
 الحالات والأوقات .

واعلم أنت أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث
 خلال : أشر'فها أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسن ،
 فتكون عليه رحمة' ولنفسك ناطراً ، فإن كثرة الأعداء تنفيس
 للسرور . وقد قل الله تبارك وتعالى ادفع بالتي هي أحسن
 فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . فإن كانت
 عدوك ممن لا يصلح على ذلك ، فحصن عنه أسرارك وعم عليه
 آثار تدبيرك ولا يطنعن على شيء من مكائيدك له بقول ولا
 فعل ، فبأخذ حذرهم ويعرف مواضع عوارك فإن تحصين
 الأسرار أخذ بأرمة التدبير * وإكثار الوعيد للأعداء فشل
 ولكن داجر عدوك ما داجاك وأحص معايبه * ما

لأحباك . (١٥) وقال الشاعر

كل يداجي على البغضاء صاحبه

زكيت (١٦) منهم على مثل الذي تركوا

واعلم أن أعظم أعوانك حبه الحجج * ثم الفرصة . ثم
 لا تظهرن عليه حجة ولا تهتبل منه غرة ولا تطلبن له عثرة
 ولا تهتكن له سترأ ، إلا عند الفرصة في ذلك كله وفي المواضع
 التي يجب لك فيها العذر ويعظم فيها ضرره . هذا إن كان
 المغو عنه شراً له . وإن كان من يظهر لك العداوة ويكشف
 لك قناع الحاربة وكان من أعباك استصلاحه بالحلم والأناة ،
 فلتكن في أمره بين حالين : استبطان الحذر منه والاستعداد
 له ، وإظهار الاستهانة به . ولست مستظهراً عليه بمثل
 طهرتك من الأذناس وبرائك من المعاييب . فلتكن هذه
 سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه
 * من العدو والصديق . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أنه قال : استعينوا على الخوائع بسترها ، فإن كل ذي
 نعمة محسود .

* وإذا فشيت سرك فجامت الأمور على غير ما تقدر كانت
 ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك * . وقد قيل في الأمثال :

من أفشى سره كثر * المتآمرون عليه . * فلا تضع مراك إلا
عند من يصره نشره كما يضرك وبسعة * ستره بحسب ما ينفعك .
واعلم أنك تستصحب من الناس * أحناساً متفرقة حالاتهم
متفاوتة مندرهم ، * وكلهم بك إليه حاجة وكل طائفة تسد
عنك كثيراً من المنافع لا تقوم به من فوقها ، ولعلمهم يجتمعون
على نصيحتك والشفقة عليك . فهم من تريد منه الرأي
والمشورة * ومنهم من تريده للحفص والأمانة * ومنهم من تريده
لشدّة الفلصة ومنهم من تريده للمهنة ، وكل يسدّ مسدّد على
حياله . وقد قيل في الحكمة : إن الحلال تنفع حيث لا ينفع
السيف . ولا تخين أحداً * منهم عظم قدره أو صفرت
منزلته - من عنيتك وتعهدك ، بالجزء * على الحسنة والمعاتبة
عند العثرة ، ليعلموا أنهم معك برأى ومد مع . ثم لا تجوزن
بأحد منهم حدّه ولا تدخله فيما لا يصح له ، يستقم لك حاله
* ويتسق لك أمره .

وعلم * أن سيمر بك * في معاملات الناس حالات تحتاج
فيها إلى مداراة * أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية
انفضيلة فيها وكال العقل والأدب منها ، أن تسام أهلها وتلك
نفسك عن هواها * وتكف عن حرّجها ، * بأمر لا يجرّجك
في دينك ولا عرضك ولا بدمك ، بل يبيدك * عرّ الحم وهيبة

الوقار * وهي أمور مختلفة تجمعها حال واحدة : منها أن تأتي
مخفلاً فيه * جمع من الناس ، فنبطن عنه دون الموضع الذي
تستحقه ، حتى يكون أهله * الذين يرفعونك فتطهر جلالتك
وعظم قدرك . ومنها أن يفيض القوم في حديث عندك منه
مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتناصرون في إظهار ما عندهم .
فإن نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوك ذلك ،
فصرت كأنيك بمن عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا
لعيرك . ومنها أن يتأري جلساؤك ، والمرء نتاج الحاجة وثمرة
صلها الحمية ، فإن ضبطت نفسك كان تحاكمهم إليك ومعولهم
عليك .

واعلم أن طبع النفوس - * إذا كان على حب العلو والغلبة -
أن في تركيبها بغض من استطال عليها . فاستدع محبة العامة
بالتواضع ومودة الإخلاء بالمؤانسة والاستشارة والثقة والطمأنينة .
واعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به
عدوك ، فالصديق وجه معاملته أسالة والعدو وجه معاملته
المداراة * والمواربة ، * والمائلة والمدراة هما ضدان يقتضيان
* يفسد هذا ما أصلح هذا * ، * وكلما نقصت من أحد البابين *
رد في صاحبه ، إن قليل فقليل وإن كثير فكثير . فلا
تسلم * بالمواربة صداقة * ولا تطفر بالعدو مع الاستسلام إليه .

فضع الثقة موضعها وأقم الحذر * مقامه وأسرع إلى التمهيم بالثقة
* ولا تبادر إلى التصديق ولا سيما بالحد من الأمور .

واعلم أن كل علم * بغائب - كائن ما كان - إنما يصاب
من وجوه ثلاثة لا رابع لها ، ولا سبيل لك ولا لفيرك إلى
* غاية الإحاطات لاستئثار الله بها . ولن تهأ بعيش مع شدة
التحيز ولن يتسوق لك أمر مع اتصيع . فاعرف أقدار
ذلك .

فما غاب عنك مما قد رآه غيرك * مما يدرك بالعيان ، فسيل
العلم به الأخبار المتواترة التي يحتملها الولي وانعدو والصالح
والطالح المستفيضة في الناس ، فلك لا كلفة على سامعها من
العلم بتصديقها . فهذا لوجه يستوي فيه العلم والجاهل .

وقد يحىء خبر * أخص من هذا ، إلا أنه لا يعرف إلا
بالسؤال عنه ولما جاء لأهله . كقوم * نقلوا خبراً ، * ومثلك
يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم يتباعدون من التعارف
* لا يمكن في مثل التواضع ، وإن جهل ذلك أكثر الناس . وفي
مثل هذا الخبر * يمتنع الكذب ولا ينهأ الاتفاق فيه على الباطل .

وقد يحىء خبر * أخص من هذا يحمله الرجل والرجلان ممن
* يجوز أن يصدق ويجوز أن يكذب . فصدق هذا الخبر في
قلبك إنما هو بحسن الظن بالخبر والثقة بعدائه . ولن يقوم هذا

الخبر من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين * لأولين . ولو
كان ذلك كذلك بطل التصنع * وبين واستوى الطاهر والباطن
من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقر أنه قد يفتش بعض الأمناء
عن خيانة وبعض الصادقين عن كذب ، وأن مثل الخبرين
الأولين لم يتعقب الناس في مثلها كذباً قط ، * علم أن الخبر
إذا جاء * من مثلها جاء * بحج . * ليقين ، وأن ما علم من خبر
الواحد فإنما هو بحسن الظن * ولا تمان . * هذه الأخبار عن
الأمور التي تدركها الأبصار .

فما العلم بما غاب مما لا يدركه أحد * بعيان ، مثل مرائر
القلوب وما أشبهها ، فإنما يدرك علمها بآثار أفعاليها
* وبالعالم من أمورها على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

* وأول العلم بكن غائب الطنون . والظنون إنما تقع في
القلوب بالدلائل ، فكما زاد الدليل قوى الظن حتى ينتهي إلى
غاية تزول معها الشكوك عن القلوب ، وذلك لكثرة الدلائل
* ولترادفها .

فهذا غية علم العباد بالأمور الغائبة * . (* فمن عرف ما

ص ١٠٢٦ - ١١٠٢٧ (فمن عرف ... والله يوفق)

طبع عليه الخلق ونجرت به عاداتهم وعرف أسباب اتصالهم
واتصاله بهم وتقصى علل ذلك ، كان خليفاً - إن لم يحيط
بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الاحاطة قريباً .

(*) واعلم أن المقادير ربما سمرت بخلاف ما يقدر
الحكماء ، قال : بها الجاهل في نفسه المختلط في تدييره ، ما
لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك
إلى التضييع والاتكال على مثل تلك الحالة ، فإن الحكماء قد
أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجنات المقادير
بخلاف ما قدر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً بمن
عمل بالتفريط ، وإن اتفقت له الأمور على ما أراد . ولعمري
ما يكاد ذلك يحيى إلا في أقل الأمور . وما كثر مجيء
السلامات إلا لمن أتى الأمور من وجوها . وإنما الأشياء
بعوامها .

فلا تكون بشيء مما في يدك أشد ضئلاً ولا عليه أشد
حذراً منك بالأخ الذي قد بلوته في السراء والضراء ، فعرفت
مذاهبه . وخبرت شيمه وصح لك غيبه وسلمت لك حاجته .
فإنما هو شقيق روحك وباب الروح إلى حياتك ومستند

وإعلم : المذهب (من ٢٧ من ٧) رواية م

رأيتك * وتوأم عقلك : ولست منتفعاً بعيش - مع الوحدة
ولا بد من مؤانسة . وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه
على المكروه . فإذا صفا لك أخ فكن به أشد ضئلاً منك
بنفس أموالك ، ثم لا يزهذك فيه أن ترى منه خلقاً أو
خلقين تكرهها ، فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك لا
تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك . وبجسبك
أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : من لك
بأخيك كله ، وأبى الرجال المنزب . ثم لا يمنحك ذلك من
الامتكثار من الأصدقاء ، فإنهم جند معدون لك ينشرون
محاسنك ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطراف صديق ثان
على ملالة الصديق الأول ، فإن ذلك سبيل أهل الجهالة مع
مبلفيها من الدناءة وسوء التدبير وزهد الأصدقاء جميعاً في
إخائك ، والله * يوفقك .

وستجد في الناس من قد سخرته الرجال قبلك ومعضه
اختارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشدة
وحالات الضرورة فنافس فيه واسبق إليه ، فإن اعتقاده أنفس
العقدة . ومن بلاء غيرك فكشف عن كرم النعمة والقدر عند
الشدة ، فقد حذر نفسك وإن آنتسك ، وكأ غدر بغيرك يقدر
بك . فإن من شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومن طبيعته

القدر * لا يدوم وإنما يميل مع المرجحان ، * يذل عند الحاجة
 ويشمخ مع الاستغناء . فاحذر ذلك أشد الحذر .
 واعلم أن الحكماء لم تدم شيئاً ذمها أربع خلال : الكذب ،
 فإنه جماع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر
 قدر نفسه عنده . والغضب ، فإنه لؤم وسوء مقدرة . وذلك
 أن الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس ، فإن جاء الإنسان
 خلاف ما يهوى من فوقه أغضى وسمى ذلك حزناً ، وإن
 جاء ذلك من دونه حمله لؤم النفس وسوء لطاع على الاستطالة
 بالغضب والمقدرة بالبسطة . والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع
 لها ، فإنهم لم يعملوا لصاحب الجزع في * مثل هذا عذراً ،
 لما يتعجل من غم الجزع ، مسع علمه بفوت المجرع عليه .
 وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل * شره والحسد
 واحد وإن افترق فرعاها . وذهموا الحسد كذمهم الجزع ،
 لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام وكلفة مقاساة الاهتمام ، من
 غير أن يكون عليه في ذاك شيء . فالحسد اغتمام والقدر لؤم .
 وقال بعض الحكماء : الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ
 بالأقرب فالأقرب . وزعموا أنه لم بغدر غادر قط إلا لصغر
 همته عن الوفاء وخمول قدره . عن احتمال المكاره في جنب نيل
 المكارم .

ويقدر ما ذمت للحكام * منه الأخلاق الأربعة . فكذاك
 حدثت أصدادها من الأخلاق ، فأكثرت في تفضيلها * الأقاويل
 وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم وجماع
 لكل خير ، وأن بها تنال جسم الأمور * في الدنيا والدين * .
 فاجعل هذه الأخلاق اماماً لك ومثلاً بين عينيك ورض عليها
 نفسك وحكمها في أمرك ، تفز براحة في * العاجل والكرامة في
 الآجل .
 والصبر صبران ، فأعلما أن تصبر * على ما ترجو فيه
 النعم في العاقبة . والحلم حلمان ، فأشرفها حلمك * عن هو
 دونك . والصدق صدقان ، أعظمها صدقك فيما يضررك .
 والوفاء وفاءان ، * أسناها وفؤك لمن لا ترجوه ولا تحافه .
 فلن من تعرف بالصدق صار للناس له أتباعاً ، ومن * نسب إلى
 الحم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن * عرف بالوفاء
 . استقامت إلى الثقة به الجماعات * ، ومن * ستعز بالصبر ثل
 جسيمات الأمور . ولعمري ما * علقت الحكماء حين ستمها
 أركان الدين والدنيا . فالصدق والوفاء * توأمان والصبر والحلم
 * توأمان ، * فهن تمام كل دين وصلاح كل دينا ، وأصدادهن
 سبب كل فرقة وأصل كل فساد .
 وأحذر خصلة رأيت السار قد ستهوا بها وضيعوا النظر

فيها، مع شتالها على الفاد وقدحها لفضاء في القلوب ولعداوة
بين الأودء : انما خيرة بالأنساب . فإنه لم يعلط فيها عقل
قط ، مع اجتماع *الإنس جميعاً على الصورة وإقرارهم جميعاً
بتفريق الأمور المحمودة *والمذمومة ، من الجمال والدمامة
واللؤم والكرم والجبن والشجاعة في كل حين ، وانتقالها من
أمة إلى أمة ، ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس
من آدميين . وهذا غير مدقوع عند الجميع . فلا تجعل له
من عقلك نصيباً ولا من لسانك خطأ ، تسلم بذلك على
الناس أجمعين مع السلامة في الدين .

(*) وأعم أبك موسومٌ بسبب من قدرت ومنسوبٌ إليك
أفاعيلٌ من صاحب ، فتحرر من دخلاء *السوء ومجالسة *
أهل الرتب ، وقد جرت لك في ذلك الأمثال وسطرت
لك فيه الأقويل ، فقلوا : المرء حيث يجعل نفسه
وقلوا : يُظنُّ بامرء * ما يُطسُّ بقريته . وقلوا : المرء
* بشيئهِ والمرء بأبيغهِ . وإن تقدر على التحرر من *جماعة
الناس ، ولكن أقر المؤاساة إلا بأمر لبراءة من كل دس .
وعم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يُعرف والمستفيض

* (١٥٣) واعلم . . . التمهيد : رواية م (٧) :

من أفعاله بوصف ، وإن كان بين ذلك كثير من *خلافه الغاء
الناس وحكموا عليه بالمسالب من أمره . فاجهد أن يكون
أغلب الأشياء *على أفاعيلك ما تحمده العوام ولا قدومه
جماعات ، فإن ذلك يعفى عن كل حلال إن كان . فبادر
النية لئلا تشغلها بمحايينك فاهم إلى كل شيء
مراع . واستطهر على من دونك باستفضل *وعلى منظر لك
بالإصاف وعلى *من فوقك بالإحلال ، تأخذ بوثائق الأمور
وأرمة التدبير .

وأعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراحه كله دليل
على قلة الاكترات . *بأمر الصديق ، فكن فيه يمين أمين :
عاقبة فيما تشتركان في تقعه وضره وذلك في اهتات ، وتجاو له
عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته . وبحسب ذلك فكن في
ريارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب بالبهاء وربما أورث الملاة ،
وطول الهجران يعقب الجفوة ويحل عقدة الإخاء ويجعله صاحبه
مدرجة للقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً : فأكثر ذونه عند الليالي
*فما يسلي حبيبتك مثل فأى : ولا يبلى جديديك كابتذال *
واقصد في مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء
ويجري عليك أهمل الدناءة ، وإن التقصير فيه يقبض غنك

الكنزيب ويدل على طلب التزاييد . فاما ثناء المادمين لك في وجهك ، فإثباتك تلك أسواق أقاموها للأرباح وسأهلك في المباينة ، ولم يكن في الثناء عليهم كلمة ، لكساد أقاديلهم عند الناس أولئك الصادقون عن طريق السكارم والمتبطون عن إيتاء العالي . فارتد ليعميك مغربسا لسو فيه فروعها وتركو ثمرها ، لا تسب نفقتك ضياعا ، إنا لعاجل تقدمه أو لأجل شأه قدفع به .

ولن نعدم أن يفجأك في بعض أحوالك حقوق تسطرك وأحوال تقدحك وأمور كلها تنقسم * عنايتك وفي التثبيت في مثلها تعرف فضيلتك . فلا تستقبلها بالتضجج * وتفتين لرأي ، * وبدا منها بأعظيها منفعة وأشد ما خوف ضرر ، وكل مسأعجرك إلى الكفاة وعندر من تقصير إن كان ، * فإن الاعتذار يكسر * تحش * اللفة ويردع شذاة الشيرة . ثم تلاف جميعه إن كسار ذلك * عنك ما فإذلك .

واجهد جهدك كله أن تكون تخرج الحقوق اللازمة لك من عندك نسبة موصولة * لأصحابها بيشرك وطلاقة وجهك ، فقد زعمت الحكماء أن القليل مع خلافة الوجه أوقع بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع الميوس والانتقاض . وقد قال بعض الحكماء غاية الأحرار أن يقروا مسأعجرون ويجرموا

المرانسين . فإن مزحت فلا تفرح * بالذي يسوء ماضريك . وأنا أوصيك بخلق قل من رأيه يتخلق به ، وذلك أن عمله شديد ومرقاه صعب ، وبحسب ذلك يورث الشرف وحيد الذكر : ألا يحدث لك الخطاط من حطت الدنيا من إسخوذلك استبانة * به ، ولا لحقه إضاعة ولما كنت تعلم من قدره استعماراً ، بسلا إن زفته قليلا كان أشرف * لك وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم نذلا وإشارا له على نظرائه في الخطط والإكرام ، بسلا لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذاتك وكان هو أولى بالتمطئ عليك : إلا أنت يكون مسلطا تحساف * شذاته وممرته وترجو عنده جر منفي لصديق أو دفع مضرة عنه أو كبتا لمدو وإزال هوان به . فإن السلطان وحيلاه وزهوه يحتمل فيه ما لا يجوز في غيره ويعذر فيه ما لا يندر في سواه .

* واعلم أن نشر عاسك لا يلقى بك ولا يقبل فيك ، إلا إذا كان القول لها على السن أهل المروءات وذوي الصدق والوفاء ، ومن ينجع قوله في القلوب ، من يستام إلى قوله ويعصدق خبره ، ومن إن قال صدق أو مدح اقتصد ، يثنى بقدر البلاء ، فإن أسراف الشاء على قدر النعمة يولد في القلوب

أحب إليهم من أن يلقوا بها بكرهون ويعطوا* ومن
أبعدوا من الحق

ولا يدعوك كفر* كافر لبعض نعمك من أثر هواه على
بينه ومروءته* أو غدر غادر تصنع لك وختلك عن مالك ،
أن تزد في الإنعام وتسيء بثقتك الظنون . فإن هذا موضع
يحد الشيطان في مثله الذريعة إلى استفساد* الطبائع وتعطيل
المكارم .

وعلم أن استصغارك نعمك* يكبرها عند ذوي العقول
وسترك لها شر* لها عندهم . فاشرها بسرها* وكثرها
استصغارها .

واعلم أن من* الفعل أفاعيل وإن عظمت منافعها ومنافع
أضدها* فلا يشركه فضيلة على كل حال . فاجعل صحتك
أكثر من كلامك ، فيه أدل على حكمتك . واجعل عموك
أكثر من عفوئك ، فإن ذلك أدل على كرمك . ولا تقرطن
فيه كل الإمرط حتى تطرح الكلام في موضعه والسأديب في
لوانه .

واعلم أن لكل أمرى* سيداً من عمله ساهلته فيه نفسه
وسليس له فيه هواه . فتحقق ذلك من نفسك وتفاضها الزيادة

فيه وروضها على* تشبهه والولاطية فيه* (٢٦)

واحذر الحذر كله الاغترار بأمر ثلاثة ، فإن من تعطي
بها كثير وتلافيتها صعب شديد* أحدهما أن* لا تولي جسامت
تصرفك . وتقلد مهم* أمورك ووثق تدبيرك* إلا امرأة
صلاحه موصول بصلاحك وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة
عليه . * وأن لا تأنس أو تعتز بمن تعلم أن بصلاحك فساد
وبارتقاعك انحطاطه وبسلامتك عيبه ، فإن من كان هكذا
فأنت ملك موته ، فيحسب ذلك فيكون عندك . * وأن تجعل
مالك كله في عقدة واحدة أو حيز واحد . أو وجه
منفرد . إن اجتاحتها جائحة* أو نجت ثابته بقيت خسيراً . وقد
قال بعض الحكماء : فرقوا المنيه أو طلبوا الأرباح بكن شعب .
* واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمها الحكماء خلق* إلا
وقد ينفع في بعض الحالات* ويرد به شكه* ويقام بإزاء
مثله ويدافع به نظيره . * إنك متى بصحبة السلطان الحازم
العادل وبصحبة السلطان الأخرق الجهول الغشوم ، فالخاسر
العادل يسوءه لك الأدب والنصح والأخرق يسوءه لك الحيلة
والرفق . العادل يعضدك منه ثلاث وتصبر نفسه لك على ثلاث ،
فاللواتي يعضدك : تسليط العدل وإنقاذ الحكومة - وفي ذلك
* يتلوا في الفصل المشار إليه في تعليقه ٢٦

صلاح الرعيّة - وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصن البصيرة
والسبيل ، والعفو ما تبلغ به الاستصلاح واكتفي به من
البسط . (واللواتي تصبر نفسه لك عليهن الهوى إلى ما وافق
الرأي وأمضى الرأي إلا بعد التثبت حتى تعاونه عليه
الشّصحاء) .

* ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى 'تذللها على الأمور
المحمودة ، فمن * كل أمر ممدوح * هو ما تستثقل النفوس ،
ومما تسر به وتقلب إليه الأخلاق المذمومة - فإن أهملتها
وإياها غلبت * عليك لأنها فيها طبيعة مركبة * ووجبة
مفطورة . فلتكن المسألة في أخلاقك أغلب * عليك من
المعاصرة والحلم أولى بك من العجلة والصبر الحاكم عليك دون
الجزع والعفو أسبق إليك من المجازاة بالذّئوب والمكافأة
بالسوء * وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والمذمومة . فلتكن
محموداتها غالبية على أفعالك . محكة في أمورك * . فإليك إن
صبرت * ذلك وقومت عليك نفسك عشت رخي البال
قليل * اللهم كثير الصديق قليل العدو * . سليم الدين نقي
العرض محمود الفعدل جميل الأعداؤه في حديثك وبعد
وفاتك ، وكنت بموضع * الرجاء أن يصل الله لك * السلامة
الآجلة بالسّعة * العاجلة .

أَسْأَلُ اللَّهَ الْمُبْتَدِيءَ بِكُلِّ نِعْمَةٍ وَالْمُولِيَّ لِكُلِّ إِحْسَانٍ أَنْ
يُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَسَقْوَتِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ ، وَأَنْ
يَتِمَّمَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ وَيَشْفَعَكَ لَكَ مَا خَوَّلَكَ مِنْ نِعْمَتِهِ بِالنِّعْمَةِ
الَّتِي يُؤْمَنُ مَعَهَا الزَّوَالُ فِي جَوَارِهِ وَمُرَافَقَةُ أَنْبِيَائِهِ ، وَالسَّلَامُ
عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ (١٠) .

تمت

* تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق
لجميع الصواب والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
وسلامه يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاباً كتاباً السر وحفظه اللسان
من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً والله سبحانه المستعان على ذلك
برحمته .

كتمان السر وحفظ اللسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد ، فإني تصفحت أخلاقك وتدبرت أعراقك
وتأملت شيمك ، ووزنتك فعرفت مقدارك وقومتك فعلمت
قيمتك ، فوجدتك قد نامزت الكمال وأوفيت على التمام
وقولت^(١٧) في درج الفضائل ، وكنت تكون منقطع القرين
وقاربت أن تلقى عديم النظير ، لا يطمع فاضل أن يفوتك ولا
يفت شريف أن يقصر دونك ولا تخشع عالم أن يأخذ منك .
ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمال لأمرين هما
القطب الذي عليه مدار الفضائل ، فكنت أحق بالمذل

وأقر^{١٨١} بالتأنيب ، ثم لم يسبق شأوك ولم يتسمن ربتك ،
لأنه ليس ملوماً على تضييع القليل من قد أضاع الكثير . ولا
يتم بإصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفساد على
دهره ولا يحاسب على الزلة الواحدة من لا "يعد" منه الزلل
والغار ولا يُنكر المنكر على من ليس من أهل المعروف ،
لأن المنكر إذا كثر صار معروفاً ، وإذا صار المنكر معروفاً
صار المعروف منكراً . وكيف يُعجب بمن أمره كله
عجب . وإنما الإنكار والتعجب ممن خرج عن مجرى العادة
وفارق السنة والسجية ، كما قال الأول : خالف تذكر ، وقيل :
الكامل من عدت سقطاته ، وقيل : من استوى يومه فهو
مغبون ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون ومن كان غده
خيراً من يومه فذلك السعيد المعبوط . وفي هذا المعنى قال
الشاعر :

رأيتك أمس خير بنى معدي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذاك تزيد سادة عيد شمس
وقال آخر في معنى :

أنت أمروء هلك المعالي ودكوا معروفك الربيع
وأنت من وائل صميم كالقلب تحنى له الضلوع
في كل عام تريد خيراً يشيعه عنك من يشيع

والأحران اللذان نغمسها عليك : وضع القول في غير موضعه
وإضاعة السر بإذاعته . وليس الخطر فيها أسوأ منك (١٩)
وأحاول حملك عليه بسل ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرف
في دهرى - على كثير عدد أهله - رجلاً واحداً ممن ينتحل
الخاصة وينسب إلى العلية ويطلب الرياسة ويخطب
السيادة ويتعلنى بالأدب ويديم الشخانة والزمانة والجلم
والفتخامة ، أرى مضطه للسانه وأحد يحاطته لسه .
وذلك أنه لا شيء أصعب من مكايده الطبايع ومغالبه
الأهواء ، فإن الدولة لم تزل للشهوى على الرأي طول
الدهر ، والهوى هو الداعية إلى إذاعة السر وإطلاق
اللسان بفضل القول . وإنما سمي العقل عقلاً وحجراً -
قال الله تعالى هل في ذلك قسم لذي حجر - لأنه يزوم
اللسان ويخطئه ويشككه ويزينه (٢٠) ويقيد الفضل
ويغلبه عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ
والمصرّة ، كما يعقل البعير ويحجر على اليتيم . وإنما اللسان
ترجسان للقلب والقلب خزانة مستحفظة للخواطر
والأسرار وكل ما يعبه ذلك عن الخواص من خير وشر وما
تولد له شهوات الأهواء وتنتحه الحكمة والعلم . ومن شأن
الصدر على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنما يعي بقدرته

الله لا يعرف العباد كيف هي أن يضيق بما فيه ويستثقل ما حمل منه ، فيستريح إلى تبذره ويأخذ إلقاءه على اللسان ، ثم لا يكاد أن يشعيره أن يخيط به نفسه في خلواته حتى يقصيه به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه ، كل ذلك ما دام هو مستولياً على اللسان واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأي اهوى فاستولى على اللسان منه من تلك العادة ورده عن تلك الدربة وجشعه مؤربة الصبر على ستر الحلم والحكمة . ولا شيء أعجب من أن المنطق إحدي مواهب الله العظام ونعمه الحسام ، وأن صاحبها مسؤول عنها ومحاسب على ما تحول منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته والقيام بقسطه وحجته ووضعها مواضع الذفع في الدين والدنيا والاتفاق منها بالمعروف لفظاً لفظاً وصرفها عن أضدادها . فلم يرخص الإنسان أن عطشها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعمله في ضد ذلك مما يضره ، فاجتمع عليه الإثم اللدن اجتماعاً على صاحب المال الذي كثره ومنعه من حقه ، فوجب عليه إثم الملع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق ، فوجب عليه إثم الاتفاق منها . وهذه غائب

الفن والحسرات ، نعوذ بالله من

فد للسان أداة مستعملة لا حس له ولا دم عليه ، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل ، فالحمد هو الاسم الجامع لكل فضل وهو سلطان العقل انقياسه . فليس قبح انصب وتسكين قوة الشر وإسقاط طائر الخرق بأحق بهذا الاسم ولا أولى بهذا الرسم * من قبح فرط الرضا وغلبة الشهوات والمنع من سوء الفرح والبطر ومن سوء الجزع والملح وسرعة الحمد والدم وسوء الطبع والجشع وسوء منازعة الفرصة * وفرط الحرص على الطلبة وشدة الحسنيين والرقعة وكثرة الشكوى والأسف وقرب وقت الرضا من وقت السخط ووقت السخط من وقت الرضا ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف وفي غير نفع ولا جدوى .

واعلم يقيناً أن الصمت سرمداً أبداً أسهل مراماً على ما فيه من المشقة من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز والقصد للصواب ، لما قدمنا ذكره من علة محذرة الطباع ولأن من نجس لسانه بحبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجلبة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقيين وعن القائب إلى الشاهد ، وأحب الناس أن ينقل عنهم ونقشوا خواصهم في المنحور واحتالوا لنشر

كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ولم يحضر آيات الرسول . وقام بحجج الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان ، وعرفت البلدان والاقطار والامم والتجارات والتدبيرات والعلامات ، وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة الى قبول الأخبار عن الرسل وسلباً الى التصديق وعوفاً على الرضا بانتقليد . ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقدت الأخبار وحلت هذه الحيل . ولكن الله عرّوجل حبسها إليهم لهذا السبب ، كما حصى عشق النساء داعية للججاج ولذة الجماع سبيلاً للنسل والرقعة على الولد عوناً على التقربية والحضانة وبها كان النشوء والنماء ، وحب انطعم والشراب سبباً للغذاء والغذاء سبباً للبقاء وعمارة اسنينا .

فمسر على لسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة والانقياد لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدنا أسهل من مجاذبة الطبائع . فاعتراه الكرب الكتمان السر وتغشيه لذلك سُقم وكعدٌ يُحسُّ له في سُويد قلبه بمثل دبيب الصل وحكة الجرب ومثل لسع الدّبر (٢١) . ووخر الأثافي ، على قدر اختلاف مقادير الحجوم والبرانة والحفة . فإذا جاح سرّه فكأنه أنشط من عقالي . ولذلك قيل : الصدر

إذا نقت برأ ، مثلاً مضروباً لهذه حال . وقيل :

* ولا بُدّ من شكوى : إذا لم يكن صبر *

وليس قولنا : 'طبيع' الأسان' على حبّ الإخبار والاستخبار ، حجة له على الله ، لأنه 'طبيع' على حبّ النساء ومنع الزنا وحبّ اليه الطعام ومنع من الحرام ، وكذلك 'حبّ اليه أن يختر الحق' النافع ويستخير عنه ، وجعلت فيه استطاعة هذا ودالك ، فاختر اموى على الرأي .

ومما يؤكد هذا المعنى في كرب الكتمان وصعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم * ما رواه عن بعض فقهاءهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوام ، فضاقت صدره بها ، فكان يبرر الى *العري فيحتمل بها حقيرة* يُودعها دكاً (٢٢) ثم يتكب على ذلك الدن فيحدثه بما سمع فيروح عن قلبه ويرى أن قد نقل سرّه من وعاء الى وعاء .

وكان الأعمش سيئ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يُضجونه ويسومونه نشر ما يحبّ طبيه عنهم وتكرار ما يحدثهم به ويتغنّونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل . فإذا فعل ذلك ضاقت صدره بما فيه وتطلعت الأخبار الى الخروج منه ، فيقبل على شاة كانت له في منزله ، فيحدثها

بالأخبار والفقهاء ، حتى كانت بعض أصحاب الحديث يقولون :
ليت أني كنت شاة الأعشى .

وشكا هشام بن عبد الملك ما يجد من فقد الأئیس المأمون
على سره ، فقال : أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لها
طعماً ، وأتيت النساء حتى ما أنالي امرأة لقيت أم حائصة
فما بقيت لي لذة الا وجود أخ أصع بيني وبينه مؤونة
للتحفظ .

وقال معاوية لعمر بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر
شباب قريش أن يخرجوا عننا ، ففعل . فقال : اللذة طرحة
المروءة . وقد صدق عمرو ، ما تكون الزمانة والوقار
إلا بحمل على النفس شديدة ورياضة متعبة . وقال بعض
الشعراء .

ألم تر أن وشاة الرجاء لا يدعون أديماً صحيحاً
فلا تفش سررك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحاً

والسر أن أبقاك الله إذا تجاوز صدر صاحبه وأعلنت
من لسانه إلى أذن واحدة ، فليس حينئذ بسر . بل ذلك
أولى بالأذاعة ومفتاح السر والشهرة . وإنما بينه وبين أن
يتشيع ويستطير أن يدفع إلى أذن ثانية ، وهو منع قلته

المأمونين عليه = وكرب الكتمان - حري بالانتقال إليها في
طرفة عين . وتصدر صاحب الأذن الثانية أضيقت وهو إلى
افشائه أسرع وبه أسخى وفي الحديث به أعذر والحجة عنه
أدحض ، ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني والرابع من الثالث
أبدأ إلى حيث انتهى . هذا أيضاً إذا استشهد المحدث واستكنتم
وكان عاقلاً حليماً وناصحاً وأدباً ، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر
بالكتمان وكان بمن يشي بالنائم ويحب افشاء المعاييب ،
وكان ممن ينطوي على غش أو شذو أو كان له في اطهاره
اجتلاب تقع أو دفع ضرر . فالزم إذ ذاك على صاحب
السر واجب وعمن أفضى به إليه أدب ، لا أنه كان مالكا
لسره فأطلق عقاله وفتح أفقاله وسرحه ، فأطقت من قيده
رواقه وصار هو العبد القن المملوك لمن اتهمته على سره
وملكه رقبته . فإن شاء أحسن ملكته بحفظ ذلك
السر فجزأ نصيبته وجعله رهينة ليوم عتبه عليه . وقيل
من يحسن الملكة ويحرم الحرية أو يضبط نفسه ، فإنه
ربما لم يخرج به غشاً فأخرجه سُخفاً وضعفاً . وإن أساء
الملكة وتختار (٢٣) الأمانة * أطلق السر واستزاعه من هو
أشد له اضاعة فسفك الدم وأزال النعم وكشف العورة
وفرق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسره * ألوم . قال

الشاعر :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق
فمن أسوأ حالاً وأخسر مكاناً وأبعد من الخزم ممن كان
سراً مالكا لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لنفسه مختاراً
للرق من غير أسر ولا قسر . والعبيد لم يصبروا على الرق
إلا بذل الأسر والسبأ . ومن كان سره مصوناً في قلبه
يطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن يده * صار هو
الطالب الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ولا يفكر له في
عاقبة ولا يتعزّز له بمصيبة . وكلما كانت اذاعته لاسراره
أكثر كان عدد مواليه أكثر وشقاؤه بخدعتهم أذوم . فإذا
كان أصل السر معلوماً عند عدة أو أقل من العدة فما أغنى
استناره ، غير أنه لا لوم على صاحب الحداية فيه * إذا
كان ليس هو الذي أفشاه ولا من قبله عليم .
ولو أن أوزن الناس حلاً ملك لسانه وخصن سره
وقلّل لفظه ، ما قدر على أن يملك لخط عييه وبسخته
وجهه وتغير لونه وتبسمه أو قطوبه ، عندما يجري به من
ذكر ذلك السر أو خطر بباله منه ، فيبدؤ في وجهه
ونخايه إذا عرض ذكره أو منح له نظير أو مثل أو حصر

من له فيه سبب ، إلا بعل التصنع الشديد والتحفّظ المفرط .
فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ويطلع عليه
بتظنن * المرجحين والمتعقّين للأفعال والأقوال * والنظر في
مصادر التدبير ونخايل الأمور ، فيفتشون هذه الجهات
أكثر مما تنفيه السنن المذاييع * انبهر ، فكيف إذا أطلق
به اللسان وعود اذاعته القلب والعادة * أمّا ملك بالآدب .
وربما أدركه الحدس وقبضه الظن ، فنالت صاحبه فيه
خدعة بأن يذكّر له طرف منه ويؤكّم أنه قد فشا وشاع
فيصدق الظن فيجعله يقيناً ويفسر الجملة فيصيرها تفصيلاً
فيهلك نفسه ويوبقها . وربّ كلام قد ملا بطون (١٤)
الطوامير قد عرّف جملته وما فيه الضرر منه بسحابة أو
طابيع أو لحظة مُطلع في الكتاب أو حرف تبين من
ظهوره . فاستيقظ عند هذه الأحوال واستعمل سوء الظن
يجمع الأنام . فما نه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : الخزم سوء الظن . وقيل لتقيف : ريم بلفظ من
الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل
في سرّك محمد عقله دون أن محمد ودّه ونصحه ، فإن الأمر
في ذلك كما قال الشاعر :

وما كل ذي لب يؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بلييب

ان
ن
قول
ة لا
ليل
هذه
ة لا
هذه
صحة
يجرم
ه فانه
يقبل
يلحقه
رها
ن تجد
حيث

عها

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق إليه دخل
على عبد الملك بن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبه . فلما
خرج من عنده سحر بما كان منه لبعض أصحابه فلامه وأتبه ،
وقال : ما يؤمنك أن يخرج أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج
بما قست فيه - ومرجعك إلى العراق - فيضغته عليك ؟ قال :
كلا والله أبي ما رطنت بيدي قط أحدا أرزن منه .
وهذا والله - أبداك الله - العلط البتين والعدر لمصق
وتحسين ورط الخطأ ، لأنه ليس كل راحح وعقل ينصح
لصاحب أسر ، ولو كان أخوه كدبك كان أمره . ليس أم
وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه
المؤونة ، وأما يعملها الأدنى بالأعلى رغبة ورهبة وتحسنا
عندهم لحاجتهم اليهم .

وأكثر من يذيع أسرار الناس أهلهم وعميدهم وحاشيتهم
وصبيانهم ، ولهم عليهم اليد والسلطان . فالسر الذي يودعه
خليفة في عامل له يلحقه ربه وشينه أخرى أن لا يكتفه .
وهذا سبيل كل سر يستودعه الحجة والعطاء ومن لا قبله
العقوبة ولا تلحقه اللافة .

وقال سليمان بن داود في حكته . ليكن أصدقاؤك
كثيراً ، وصاحب سرك واحداً من ألف (٢٥) . وليس معنى

الحديث أن تعد من تعرف أنك وتفضي إلى واحد سر إن
لم يكن ذلك الواحد مؤثماً لمانة في السر ، لكنه قيل :
رجل يساوي ألف رجل ورجل لا يساوي رجلاً ، وكقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدس كإبل مائة لا
يوجد فيها راحة . فكل ذلك يراد به أن الفضل قليل
والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاحتياج من هذه
الأعداد ، لأننا قد نجد الرجل يرن بالآمة ونجد الآمة لا
تساوي قلامة طمر ذلك الرجل . فإذا كان من تقع عليه هذه
الشريطة معدوماً شيئاً من يوثق بحليته وعقله وأمدته ونصحه
ومن لا ضرر عليه ولا تقع له في السر الذي يضر ولا يجرم
عليه كتمانها ، ومن قد وآى على نفسه بالسر والحفظ ، فإنه
ليس كل من ضمن فلم يضمن سامناً ولا من استودع فلم يقبل
مستحفظاً ولا من استخلف لم يحلف خائناً ، وإنما يلحقه
الحمد والدم والأجر والاثم إذا ضمن لآمانة ثم خترها .
فكان الثوم قالوا : لا تودع سر سرك أحداً ، والآفة تجد
رجلاً فيه الصفة التي وصف بها مسكين الدارمي نفسه حيث ..
يقول :

إني امرؤ متى الحياة الذي ترى
أوبى بأخلاق قليل خداعها

أواخي رجالاً لستُ أطلعُ بعضهم
 على سرٍّ بعض غيري أني جماعها
 يظنون شتى في البلاد وسرهم
 إلى صخرة أعيا الرجال انصداًعها
 وقيل لرجلٍ : كيف كتبتك للسر ؟ قال : أجعلُ قلبي
 له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النشور . وقال الآخر :
 * واكتم السر في ضربة المنق *

وهذه صفات موجودة بالأقوال معدومة بالأفعال
 والمغرور من اغتر بما يعده الواعد منها دون أن يئتم الخبر .
 والذي جربناه ووجدناه أن أكثر من يفضي إليه بالشيء
 يبلغ من اداعته ونشره ما لا يبلغه الرسول المستحفظ المعني
 بتبليغ الرسالة المحمودة المجازي على أدائها ، حتى ربما كان لا
 يبلغ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال
 المعروف بالنبعة والتقنيت (٢٦) فيومنه أنه قد استحفظه
 السر فيشيع على لسانه كما يشيع الصوء في الظلمة . وهذا فعل
 عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أحب أن يشيع سلامه ،
 فقال : من أنتم أهل مكة ؟ قيل له : جميل بن النخيت ،
 فأنه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتبه عليه ، فلم يمسر وبمكة
 أحد لم يعلم بإسلام عمر رضي الله عنه . ثم يكون من أكثر

الأعوان على اظهار السر الاستمهاد فيه والتحذير من نشره ،
 فإن النهي أغري لأنه تكليف مشقة ، والصبر على التكليف
 شديد وهو خطر ، والنفس طيارة متقلبة تعشق الإباحة
 وتفرم بالإطلاق . ولعل رجلاً لو قيل له لا تمسح يدك بهذا
 الجدار ، وهو لم يسحها به قط أغري بأن يفعل . وكذلك
 ما حدث به من السر فلم يؤمر بستره لعله ألا يخطر بباله ،
 لأنه موجود في طبائع الناس الولوع بكل ممنوع والضجر
 بكل محمول . فتريد أن تعلم أنه صار الإنسان على ما
 منع وإن كان لا ينفعه أحرص منه على ما أبيح من غير علم
 ولا سبب . إلا امتنان ما كثر عليه واستطراف ما قل
 عنده ، ولم أقبل على من ولى عنه وولى عن أقبل عليه ، ولم
 قالوا : إذا جدت المسألة جد المنع . وقال الشاعر :
 الحر يلحى والعصا للعبد . وليس لملحف مثل الرد
 ولم صار يمتنى الشيء وينذر فيه الدور وينقطع إليه
 شوقاً ، فإذا ظفر به جد عنه وأخس عنه ، ولم زهد الملوك
 فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي الناس . فقول : إن الله
 تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغاً من الوسع لا يمكنها
 تجاوزه ولا تتسع لأكثر منه ، فكان معها فيما دون الوسع
 الفقر وخوف الإخوان وفيما تجاوزه عز الغنى وأمن العدم .

وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفت من احتاج اليها
وأعظمت من استغنى عنها ، وجعلها توافقة مشتاقة مطرفة
ملالة كثيرة النزاع والتقلب يستعجم عليها العنك (٢٧) ويتلى
خبرها وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلال سقطت الحن ،
ضبي تعظم انقليل بالضرورة اليه ان كان من أقواتها ، أو لشدة
النزاع والشوق ان كان من طرف شهواتها ، فانت صنف
الشهوات كثيرة ولكل صنف منها أهل لا يحفلون بما سواه ،
ويعجب من الغريب النادر ويضحكها البديع الطاري ،
الا أنه إذا كثرت الغريب صار قريبا ، وإذا تجاوز المطلوب
مقدار وسعها وحاجتها فصار ظهريا وفضلا استخفت به وقل
في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدرا ما اشتد إليه
الفقر والحاجة وان قل ضرره ، وأموها عليها ما استغنى عنه
وان عظم خطره ، وجعل لما يتوق إليه ويشتاقه مكانا من
قواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكان سرورا وقضى ذلك الأرب
وطرا بما كان طمع اليه وتروي بما كان ظامنا اليه ، انصرف
عنه وقلاه (٢٨) وحال عشقه بغضا وشوقه ملالا .
والعلة في ذلك أن الدنيا دار زوال وملال ليس في مكانها
أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة ، وإنما
الثبوت الدائم لدار القرار . فالسامة تلحقها في مجيئها كما

تلحقها في مكروها ، كما يصيب المنتهي من الطعام والشراب
والبلاء ، فإنه ليس شيء أبغض الي من يتناهى فيه الى غايته من
النظر الى ناحيته فضلا عن ملاسته ، الى وقت عودة السبب
الاول .

فإذا كانت الطبايع تشابه ولكل حاسة قوة ، فإذا
امتلات تلك القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعما ولا
ريحا وعاد عليها بالضرر . فبعض النظر يعمي والصوت
الشديد يعم والرائحة المنتنة تبطل المشم والاطعمة الحارة
المحرقة تطل حاسة اللسان وتطرف كل واحدة منها ،
فبين الطبيب عند من بعد عهده به أو الجماع والساع وبينه
عند من هو مغموس فيه يوم بعيد جدا في الحلاوة
وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ، فإنه
كلما كثر كان أشهى وأعجب . لانت قصدة الناس له ليس
لطلب مقدار الحاجة وشدة الحاجة كما يريد أهل القناعة
والزهادة ، وإنما يراود لقمع الحرص ، والحرص لا حد له ولا
نهاية ، لانه سعي لا الحاجة وايضا لا لبغية . وهكذا قال
رسول الله ﷺ : لو أن ابن آدم واديين من ذهب لابتغى
اليها ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، وقال بعض
الحكماء

من كان لم يَغْنَ بما يُغْنيه

فكلُّ ما في الارض لا يُغْنيه

قال الله عز وجل وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وقال وان

لحبُّ الخير لشديد . وقال الشاعر :

والناسُ ان شِبتْ بَطُونُهُمْ

فَعِيُونُهُمْ فِي دَاكْ لَا تَشْبَعُ

فأما الحديث الذي جاء : لا يَشْبَعُ أَرْبَعٌ من أربعة :

أَرْضٌ من مَطَرٍ وَعَيْنٌ من نَظَرٍ وَأَشْيٌ من ذِكْرٍ وَعَامٌ من
من عِلْمٍ ، فَإِنَّ الْعَيْنَ لَا تَشْبَعُ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا لَا يَشْبَعُ
الْحَيْشُومُ من الِاسْتِنْسَاقِ . فَأَمَّا مَنْ يَشْبَعُ مِنْ صَنْفٍ بِمَا
يَرَاهُ دُونَ صَنْفٍ فَإِنَّهُ يَشْبَعُ وَيَرَوَى وَيَصْدُقُ وَيَصْدِفُ إِلَى
غَيْرِهِ . وَأَمَّا الْعِلْمُ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ ، فَمَنْ
طَلَّه لَشَرْفِهِ وَفَخْرِهِ فَإِنَّهُ لَا حُدَّ لَهُ وَلَا نِهَاجَ ، وَلَمْ يَزِدْ لَهُ
طَلِبًا إِلَّا أَزْدَادَ فِيهِ رَغْبَةٍ ، وَمَنْ طَلَبَ مِنْهُ مَقْدَارَ كِفَايَتِهِ
وَحَاجَتَهُ كَفَاهُ مِنْهُ الْبَسِيرُ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَنْ كَثُرَ عَلَيْهِ
أَنْ يَرَى فِيهِ الْعَنَى وَالْكَبْرِيَاءُ أَيْضًا ، وَقَدْ يَمْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا يَمْلِكُ
وَيَقْتُلُ الْعَيْنُ أَيْضًا مِنْهُ وَمِنْ الْمَالِ .

وقيل : اثنان منهومان طالب علم وطالب دنيا . وهذه
الشبهة تدل على الخروج عن العقل لان النهم تجاوز القدر .

وأما الحرص على المنوع الذي لا يتفجع به والعجب مما لا
يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء ، وما لم يكن في
أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه . وإنما ذلك من فعل من
استوحش من الحجة وشرذ عن عم العمل والأسباب .

واقضاء السر . فكل بالخير الرائع والخطب الحليل والدفين
المعمور والأشع لأبلى ، (٢٩) مثل سر الأديان لعلة الهوى
عليها وقصاعن أهلها بالاختلاف والتضاد والولاية والعداوة ،
ومثل سر الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور
تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجللة ، لفاسة العوام على
الملوك وأنهم سماء مظلة عليهم أعينهم اليها سامية وقلوبهم بها
معلقة ورغباتهم ورهباتهم اليها مصروفة . ثم عداوات
الاخوان ، فإنما صارت العداوة بعد المودة أشد لاطلاع الصديق
على سر صديقه وأحصائه مما يبه ، وربما كان في حال الصداقة
يجمع عليه السقطات ويحصى العيوب ويحتفظ بالرقاع ، أرساداً
ليوم النية (٣٠) وأعداداً لحال المصيرية . وقد شك بعض
الملوك تنقيب العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناس منا	ما ينال الناس عنا
لو سكننا باطن لار	هن لكانوا حيث كنا
انما مهمم أن	يتشروا ما قد دفنا

ولم تر حبيب الطمع على المسكوك والتجسس عن أخبارهم وعشق
تشر المصائب واستحلال الغيبة ظاهر في طباع الناس لا يكاد
ينجو منه أحد منهم إلا من رجح حله وعظمت مروءته وظهر
سؤده واشتد ورعه ، حتى قال بعضهم : الغيبة فاكهة النساء
وروا عن بعضهم أنه قال : الفاسق لا غيبة له . وقال آخر :
أتراعون من ذكر الفاسق ؟ اذكروه يعرفه الناس .

ولم تر الله جل ثناؤه رخص في اغتياب مؤمن ، بل ضرب
المثل في الغيبة بأكره ما تكرهه النفوس وما تختار منه الموت
على الحياة ، فقال ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . أجب
أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . واغتياب الناس
جميعاً خطة جور في الحكم وسقوط في الهمة وسخافة في الرأي
ودناءة في القيمة وكلفة عريضة وحسد وثقاسة قد استحوذت
على هذا العالم وغلبت على طبائعهم وتوكدت لسوء العادة عندهم
ولعلو الشر على الخير . وكثرة الدغل والنفل (٣١) والجسد في
القلوب . فلست ترى منها ناجياً ، أما ناظر بعين عدل
وانصاف فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه ، وأما
ناظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد في الميوب في
عدوه ما يعينه على التخرص عليه فيقويها ويزيد فيها ، وإن
عند الحق قول وقبح الحسن وزاد في قبح القبيح . والحديث

كلمة إلا ما لا بال به ذكر الناس ولو غلط وهجر وهذا
وغيبة وهمز ولز . وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني إنما الإنسان
حديث فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكل مر في الأرض إنما هو خبر عن إنسان وطبي عن
إنسان ، فله في الغيبة أكثر الحظ ، وجلبها كلفة لا ضرورة .
يرى صاحبها أنه قد أهدى محاسبة نفسه وغفر ذنوبها وألغى
عيوبها ، وقصد قصد غيره فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ،
فأنكر أقواله وأفعاله وهجن تدييره وتعجب من مقاييسه
وجهد نفسه في تفقد أموره ، ليس ذلك عن عناية بصلاحه
ولا محبة لتقويمه وتهذيبه ولا أنه مسيطر عليه ولا محمود عنده
على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم . وهذا جل
حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فضول القول
وفضول الخواطر تبعث على اللهو والخطل . ولو كان الرجل
لا يتكلم إلا بما يعنيه ولا يتكلف ما قد كفيه ، قل كلامه .
ولو حكم العدل في أموره وفيما بينه وبين خالقه وبينه وبين
إخوانه ومعامله ، لطاب عيشه وتحت مؤونته والمؤونة
عليه . فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحلى من العدل
ولا أروح على القلوب من الانصاف ، ولا أمر من الظلم ولا

أبشع من الجور

وقال بعض المتقدمين : إنما يعرف الظلم من حكم به عليه . ومن استعمل العدل دله على أن الناس يحدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يحذ إذا ظلم ، فكره لهم ما كره لنفسه فأصف ولم يظلم . ويتظلم الناس فيما بينهم بالشرع والجور المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الأحكام وقد أطلق لهم تصريحها ، وأخلاقهم وأماناتهم التي ردت إليهم الأحكام فيها ما جنائته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم . وقال بعض الحكماء : إن من أصعب الأعمال انصافك في نفسك ، ومؤاساتك أخاك في مالك ، وذكر الله ، أما أني لا أعني قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - وإن ذلك لمن ذكر الله - ولكن ذكره عندما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعة الله فعلته وإن كان معصية الله اجتنبت .

وروي عن بعضهم أنه قال : ثلاثة في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله : رجل لم يعب أخاه بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه فإنه لا يصلحه حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، ورجل لم يقدم يداً ولا رجلاً حتى يعلم أن طاعة الله هو أم في معصيته ، ورجل لم يلتبس من الناس إلا مثل ما يعطيهم من نفسه . أما تحبون أن تنصفوا ؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله عبداً أنفق الفضل من ماله وأنتك الفضل من قوله وشغله عييه عن عيوب الناس .

وقال عيسى بن مريم . يا بني إسرائيل أبرى أحدكم القذاة في عين أخيه ويغيب عن الجذع المتعرض في عينه (٣٢) . وقيل لعيسى بن مريم . ما أفضل أعمالك ؟ قل : تركي ما لا يعني .

وقال عمرو بن عبيد . أعيتني ثلاث خلل : تركي ما لا يعني ودرهم من حبه وأخ إذا انحنت إلى ما في يديه بدله لي . وما أحق من أحصيت أفاعله وليس من قول يدبر منه إلا لديه رقيب عتيد ، ومن أحصيت عليه مثاقيل الذر واستشهد عليه جده وجوارحه ، أن يضط لسانه . وقد جاء في بعض الآثار : من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعني .

وكل امرئ فحبيب نفسه غير مأخوذ بغيره ، وهو لوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جل ثناؤه - وقوله الحق - : كل امرئ بما كسب رهين . وقال : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع سيف
والسوط. وقال بعض الحكماء : ثبت أن لا صلاح لأحدهما إلا
بإتخاذ : اللسان والسيف .

كنت إذا تأملت أكثر ما يتباحى به المتحدثون ،
وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ويكثر له لا
يكرته ويغنى بما لا يعمه ولا يصره ، وأكثر المجيبين يجيب ولم
يسأل وينكف ما لا يعلم ، ولو قل له قائل من سألك
لا تمصح ولو حاحته فيه ادعى ووقفه لا يقطع . قال الله عز
وجل : قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلمين .

ومر هشام بن عبد الملك ببعض أهل نكفة ومعضول
وعليه حلة ذبالة يسبحها في التراب ، فقال له المتكلف : هذا
ملك قد أهدت ثوبك ، قل وما يصرك من ذلك ؟ قال :
ليتك ألقيت في النار ، قل : وما يعمك من ذلك ؟ فأفحمه
أقبح الأقدم . ولو تنبأ للمتكلمين في كل وقت مثل حرامه
هشام لا يجر من به حياء منهم ولقلت معقول وانكف
والعينة .

قلوا : وليس من أحسن أدل من معتب ، لأنه يجهر
شخصه وبطائمه بحسه ويعص من صوته ، ولا يريد أن يسمع
من ذلك إلا بأن يرفع من قدر شخصه ويعظم من شأن

قال معاوية : أتدري من النبيل ؟ هو الذي إذا رأته
هبتته وإذا غاب عنك اعتبته . وهي لعمري سبيل العظماء
عند العوام والملوك عند الرعية والسادة عند العبيد ، فلم يأخذ
المعتاب من اغتابه شيئاً بعرضه (٢٣) إياه إلا والذي أعطى
من الهيبة عند حضوره أكثر منه . ولو كان المختاب لا يستقر
من العيبة إلا من يحاف سطوته كان أعذر ، ولكن النظم
استمكن منه يحمل على اغتيااب عبده وأمه فصلاً عن كفه
ونظيره ، ويفتات الرجل عند عدوه والمناسخ له مساعدة له
«لضعف وتقرئاً إليه بالمهابة والضعف» من غير أن يكون له
عليه طول أو يلتبس منه على ما تقرب به إليه حراماً أو
شكوراً . ثم لعنه ينكف إلى الذي اعتابه وقصبه (٢٤) من
ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عبده أيضاً مثل
ذلك وأكثر منه ، لا لعله أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من
سنة التي يجده في نفسه والضعف في منته ، كما يعظم العسي
غير ثمن ويحتقر الفقير بغير مبيع ، فتن كوشف أو عوت
لسته ذلة أخرى من الكفة بالمعاذير الكاذبة والاعتصام
بلايمان العاحرة ، ومن كانت هذه درته فهو حري أن
يطلع على دحة أمره فلا يقبل منه عذر ولا يصدق في قوله
ولا حلف ، وقد تسربل الدلة وتدرع الخضوع . وليس من

تفكر فقد لها . فبطر ياي* الأمرين قطعت عرك : أيا الحكمة
أم باللغو . وانتظر كيف وصف الله تعالى من أثني عليه بخير
من عباده فقال : والدين هم عن اللغو معرضون . وقال :
وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . وقال : وإذا مروا كراماً .
وصان عنه أسماع أهل الجنة وألستهم فقال : لا يسمعون فيها
لغواً ولا تأثيماً إلا قهلاً سلاماً سلاماً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العبادة عشرة أجزاء
تسعة منها في الصمت . وقال علي بن أبي طالب رضوان الله
عليه : أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج .

وقال بعض الحكماء لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكمية
لأن ينكلم بكلام ويحكى عنه محرراً فيضطر إلى أن يقول :
ليس هكذا قلت إنما قلت كذا وكذا فيكون إنكاره أقراراً
واعترافه بما حكى عنه شاهداً لمن وشى به رادعاً التحريف
غير مقبول منه إلا أن يأتي ببينة* بها . لكان ذلك من أكثر
فضائل الصمت . وربما ذكر رجل الله تبارك وتعالى . فكان
ذلك الذكر أثماً له ، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الخفير
والإغراء والتحريض ، فيشك الدم الحرام أو يعظم الجرح
الصغير ، بل ربي ضحك وتبسم فأغرى وحرض وأثم وأوتق .
قل بعض الشعراء :

هإن شئت أدلي فيكما غير واحد
بحامرة أرقال عندي في سر
فإن أنا لم أمر ولم أخش عنكما
ضحكت له حتى يلج ويستشري
وقالت العرب : من كفي شر تعلقه وذبدبه وقبقيه (٣٤)
فقد كفي الشر .

وهذا باب لولا أن نشغل انقاريء لهذا الكتاب بغير ما
قصدا اليه وعزمنا عليه لأتيناه عليه ، وهو كثير موجود لمن
طلبه . وجملة واحدة فيها كفاية ، فبت تختلف الألفاظ التي تجعل
كسوة لتلك المعاني . والافانك إذا نظرت الى جميع ضرور
الدنيا وجدت أولها كلمة غارت فبجنت حرباً عواناً كحرب
بكر وتعلب ابني وانل وعبس وذيان ابني بغيض والأوس
والخزرج ابني قبيلة والمجار الأول والفجار الثاني وعامة حروب
العرب والعجم . وإذا تأملت أخبار الماضين لم تحص عدد من
قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدريت منه . وليس العجب من
أفضى بسره الى من ليس له بموضع من تقدمت معرفته وزالت
الشكوك عنه في أمره ، ولكن العجب عين العجب من استنام
بسرته الى من لم يقدم معرفته ومن أس اليه عن اللقاء واللقاءين
دون معرفة العين والاسم والسبب والنسب ، فالتخدع في أول

وملة وغبن عقله قبل أن يفطن دينه وماله وتضاعفت عليه البلية بطول الحسرة ، فإن البلاء عارض ومكتسب ، فكان العارض الساهوي وما خولته الأقدار سرّاً بعد اجتهد صاحبه رأيه وحيلته في طلب الخير ، وصواب تدبيره فيه أسهل وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرّاً بشعاً ، وإنما الكرب اللازم والداء العمياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجعية والحاجة والنقص وأدلة غم الندامة والأسف على ما فرط منه ، إذ كان الجاني عسى * نفسه بيده . ولهذا الكلام نظر نكره التطويل به والمعنى واحد ، وإنما تحتاج من هذا ومثله بما قدمنا ذكره في الكتاب إلى حفظ السر وورن القول ، وإلى هذا أجرين وله قصداً . ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرف بما فيه لكان بإذن الله كافياً لمن كان له لبٌ وعقل ، لكن لاحتجاج أوكد والإيضاح أبلغ ، والحظ في هذا القول كله لمن عقله والاختد به أو فر * منه بمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنه إنما يجتنى ثمرة الصواب * ويختلف برفقه من صدق قوله بفعله . فمن الحكمة قول وعمل ، وإنما حظ القائل ما لم يستعمل عمله وقوله حظ الوافين ، وحسن الصفة تزول بزوالها وتقطع باقظاعها ، ومدتها - إلى أن يملأ القائل والسماع * يسيرة . والأفعال الحمودة متصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة

وبعد الوفاة ومنذ خورة للأعقاب وحديث جميل ونشر باق على مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كله توفيق الله وتأييده ، فإن القنوب في يده والخيرات مقسومات من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل (*) .

* تم كتاب كتاب السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأييده ومشيئته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، وأحمد الله أولاً وآخره وصواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

فلسفة المجد والهزل

من تصنيف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(*) 'جعلت' فذلك؛ ليس من * أجل اختياري التخل على
لزوع أقصيتني ولا على تميلي إلى الصدقة دون إعطائي الخراج
عاقبتني ولا لبغضي دفع الآثورة والرضا بالجزية حرمتني ،
ولست * أدري لم كرهت قريبي وموئيت بعدي واستثقلت
روحي ونفسي واستطلت عمري وأتأم مقامي ؛ ولم سرتك

سَيِّئِي وَمُصِيبِي وَسَاءَ ثَلَاثُ حَسَنَاتِي ، * نَعَمْ حَتَّى سَاءَ كَ
 * عَرَانِي وَتَجَمُّعِي بِقَدَرِ مَا سَرَّكَ جَزَعِي وَتَصَجُّعِي ، وَحَتَّى
 تَمَتَّيْتُ أَنْ أُخْطِيءَ عَلَيْكَ فَتَجْعَلَ خَطَايَ حُجَّةً لَكَ فِي
 إِبْعَادِي وَكَرِهْتَ صَوَابِي فِيكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعةً * لَكَ
 إِلَى * تَقْرِيبي . * فَمَا كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَعْضَبَكَ وَكَانَ هُوَ
 السَّبَبُ لِمُوجِدَتِكَ * ، فَلَيْسَ - * جُعِلْتُ فِدَاكَ - هَذَا الْحَقْدُ
 فِي طَبَقَةِ هَذَا الذَّنْبِ وَلَا هَذِهِ الْمَطْلَبَةُ * مِنْ شَكْلِ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ .
 وَلَوْ كَانَ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي وَرَثَةِ وَقْعٍ قَرِيبًا وَإِذْ لَمْ يَكُنْ عِدَاةً
 وَقَعِ مِثْلُهَا ، كَانَ أَهْوَنَ فِي مَوْضِعٍ أَضَرَّ وَأَسْهَلَ فِي تَخْرُجِ
 السَّمَاعِ . فَأَيُّ شَيْءٍ * بَقِيَتْ لِلْعَدُوِّ الْمُكَاشِفِ وَاللِّمَافِقِ
 الْمُتَلَاطِفِ * وَالْمُعْتَمِدِ الْمُصِيرِ * وَالْقَادِرِ الْمُدِلِّ ؟ وَتَمَنَّى عَاقِبَ
 عَلَى الصَّغِيرِ بِعُقُوبَةِ الْكَبِيرِ وَعَلَى الْهَفْوَةِ بِعُقُوبَةِ الْأَصْرَارِ وَعَلَى
 الْخَطَا بِعُقُوبَةِ الْعَمْدِ . وَعَلَى مَعْصِيَةِ * الْمُسِيرِ بِعُقُوبَةِ مَعْصِيَةِ
 * الْمُتَعَلِّلِ ؟ وَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْأَعَالِي وَالْأَسَافِ وَبَيْنَ الْأَقَاصِي
 وَالْأَدْنَى عَاقِبَ عَلَى الزَّانَا بِعُقُوبَةِ * لَسْرِيقَةِ وَعَى الْقَتْلِ بِعُقُوبَةِ
 الْقَذْفِ . وَمَنْ خَرَجَ إِلَى ذَلِكَ فِي بَابِ الْعِقَابِ خَرَجَ إِلَى مِثْلِهِ
 فِي بَابِ الثَّوَابِ ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ جَمِيعِ الْأَوْزَانِ وَخَالَفَ جَمِيعَ
 التَّعْدِيلِ كَانَ بَغَايَةَ الْعِقَابِ أَحَقَّ * وَبِهِ أَوْلَى .
 وَالِدَلِيلُ عَلَى شِدَّةِ غَيْظِكَ وَعَلَيَانِ صَدْرِكَ ، قُوَّةُ حَرَكَتِكَ

وإِبْطَاءُ فَتَرْتِكَ وَبُعْدُ الْغَايَةِ فِي احْتِيَالِكَ . وَمِنْ الْبَرْهَانِ * عَلَى
 ثَبَاتِ الْغَضَبِ وَعَلَى كَظْمِ الذَّنْبِ * تَمَكُّنُ الْحَقْدِ وَرُسُوحِ الْغَيْظِ .
 وَبُعْدُ الْوَتْبَةِ وَشِدَّةُ الصَّوْلَةِ . وَهَذَا الْبَرْهَانُ صَحِيحٌ مَا صَحَّ
 التَّنْظِيمُ وَقَامَ التَّعْدِيلُ وَاسْتَوَتْ الْأَسْبَابُ . وَلَا أَعْلَمُ فَرَأَى أَبْلَغَ فِي
 احْتِرَاقِ أَهْلِهَا مِنْ نَارِ الْغَيْظِ وَلَا حَرَكَةِ لِقَاضٍ لِقُوَّةٍ لِأَبْدَانٍ مِنْ
 طَلَبِ الطَّوَائِلِ * مَعَ قَلَّةِ الْهَدْوِ وَالْجَهْلِ بِمَنَافِعِ الْجَلَامِ وَاعْطَاءِ
 الْحَالَاتِ أَقْسَامَهَا مِنَ التَّدْبِيرِ . * وَلَا أَعْلَمُ تَجَارَةً أَكْثَرَ خُسْرَانًا
 وَلَا أَخْفَ مِيزَانًا ، مِنْ عِدَاوَةِ الْعَاقِلِ * الْعَامِّ ، وَإِطْلَاقِ لِسَانِ
 الْخَلِيسِ لِمُدَاخِلِ الشُّعَارِ دُونَ الدُّنَا وَالْخَصِّ دُونَ الْعَامِّ .
 وَالطَّلَبُ * * جُعِلْتُ فِدَاكَ - بِعَرَضٍ طَفَرِ مَا لَمْ يَخْرُجْ
 الْمَطْرُوبُ وَإِلَيْهِ الْخِيَارُ مَا لَمْ تَقَعِ لِنَارِهِ . وَمِنْ الْحَرَمِ أَلَا تَخْرُجُ
 إِلَى الْعَدُوِّ الْإِلَهِ وَمَعَكَ مِنَ الْقُوَى * مَا يَغْنَمُ الْفَضْلَةَ الَّتِي * يَنْتَجِبُهَا
 لَهُ الْإِخْرَاجُ . وَلَا بَدَأَ أَيْضًا مِنْ حَزْمٍ يُحَذِّرُكَ مُصَارَعَةِ الْبَغْيِ
 * وَيُخَوِّفُكَ نَاصِرَ * الْمَطْلُومِ .

وَبَعْدُ - * أَبْقَاكَ اللَّهُ - فَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ * مَوْضِعِ أَلَمِ الْغَيْظِ
 مِنْ نَفْسِكَ ، وَالْغَيْظُ عَذَابٌ * ، وَلَرَبَّمَا زَادَ التَّكْشِفِي فِي الْغَيْظِ
 وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ . وَلَسْتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ تَقَرُّدِ سَهْمِكَ فِي * صَيْدِكَ
 كَمَا أَقْبَنْتَ بِمَوْضِعِ الْغَيْظِ مِنْ صَدْرِكَ ، وَالْخَازِمُ * لَا يَلْتَمِسُ شِفَاءَ
 غَيْظِهِ بِاجْتِلَابِ ضَعْفِهِ * وَلَا يُطْفِئُ نَارَ غَضَبِهِ * تَأْخُذُ عُقُوبَةُ

مَنْ أَغْضَبَهُ وَلَا يَسُدُّ سَهْمَهُ إِلَّا وَالْعَرَصُ مُمَكَّنٌ وَلِعَايَةُ قَرِيبَةٍ
 وَلَا يَهْرَبُ * وَالْمَهْرَبُ مَعْجَزُهُ . إِنَّ سُلْطَانَ الْغَيْظِ غَشُومٌ وَإِنْ
 حُكِمَ الْغَضَبُ جَائِرٌ ، وَأَضْعَفُ مَا يَكُونُ الْعَزْمُ عَنِ التَّصَرُّفِ
 أَضْعَفُ مَا يَكُونُ الْحَرَمُ . وَالْغَضَبُ فِي طَبِيعِ شَيْطَانٍ وَالْهُوَى
 يَتَصَوَّرُ فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ ، فَلَا يُبْصِرُ مَسَاقِطَ الْعَيْبِ وَمَوَاقِعَ
 الشَّرَفِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدِلٍ الطَّبَاعِ وَمُعْتَدِلٍ لَأَحْلَاطٍ وَمُسْتَوِي
 الْأَسْبَابِ . وَاللَّهُ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ لَكَ مَرْفَ رِضَا مُخْفِةٍ
 جَوَازِيهِ إِلَى مَرْفِ اهْوَى ، فَدُخِّنْتُكَ سِرْفَ الْغَضَبِ وَبَغْلِيَّةِ
 الْغَيْظِ ، وَلَا سِيَّامَنْ * قَدْ تَعَوَّدَ إِمَالَةَ أَنْفُسِهِ وَمِيعُونَ دَهْ الصَّبْرِ
 وَلَمْ يَمْرِفْهَا مَوْضِعَ الْحِظِّ فِي تَجَرُّعِ * مَرَّةِ الْعَمَوِ . * وَنَمَا الْمُرَادُ
 مِنَ الْأُمُورِ عَوَاقِبُهَا لَا عَوَاجِلُهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ
 أَفْرَاطِ السَّرُورِ فَهَذَا ظَنُّكَ بِفَرَاطِ الْغَيْظِ . وَقَدْ قُلْتُ * بَعْضُ
 النَّاسِ : لَا خَيْرَ فِي طُولِ الرَّاحَةِ إِذَا كَانَ يُوْرَثُ الْفَقْلَةُ وَلَا فِي
 * طُولِ الْكِفَايَةِ إِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى الْمَعْجَرَةِ وَلَا فِي كَثْرَةِ * الْغِنَى
 إِذَا كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْبَلَدَةِ .
 جُعِلَتْ قَيْدَاكَ ، إِنَّ دَاءَ الْحُزْنِ وَإِنْ كَانَ قَاتِلًا فَإِنَّهُ دَاءٌ
 مِمَّا طَلَّ * وَسَقَمُهُ سَقَمُ مَطَاوِلٍ وَمَعَهُ مِنْ * التَّمَهُّلِ بِقَدْرِ قَسْطِهِ
 مِنْ * أَنَاةِ الْمِرَّةِ (٣٦) السُّودَاءِ . وَدَاءُ الْغَيْظِ مِمِّهِ * طِينِاشٍ
 وَعَجُولٍ فَحَاشَ يَعْجَلُ عَنِ التَّوْبَةِ * وَيَقْطَعُ دُونَ الْوَصِيَّةِ وَمَعَهُ

مِنْ الْخُرْقِ بِقَدْرِ قَسْطِهِ مِنَ الْتِهَابِ امْرَأَةِ الْحِمَاءِ . * وَلَعَجُولٍ
 يَخْطِئُ ، وَإِنْ ظَفَرَ ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا أَخَذَ . عَنِ أَنَّ اخْطَافَهُ يَزِيدُ
 فِي حَقِيقَةِ نَخْطِهِ كَمَا أَنَّ ظَفْرَهُ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ مِقْدَارِ زَلَلِهِ . وَأَنْتَ
 رُوحٌ كَمَا أَنْتَ وَحْشِي مِنْ قَرْنِكَ إِلَى فَرْمِكَ ، وَعَمْرٌ لَاقَةٌ فِي
 بَدَقِ وَالْعَتَقِ أَسْرَعُ وَحْدَهَا عَنِ الْغَلَاظِ أَجْفَدُ أَكْلٌ . فَلِذَلِكَ
 اشْتَدَّ جَزَاعِي لَكَ مِنْ سُلْطَانِ الْغَيْظِ وَعَيْبِهِ .
 وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ ابْتَلَعْتُ مِرَارًا بِابِكَ وَأَبْطَلْتُ * بَرَّ السَّاطِلِ
 وَرَدَدْتُ الْقَطَنُوعَ كُلَّهَا وَنَقَضْتُ الشُّرُودَ بِأَسْرِهِ وَأَقْسَدْتُ
 تَحَاتُّ وَقَتَلْتُ كُلَّ شَطْرِنَجِي * لَكَ وَرَمَعْتُ مِنْ لَدُنْيَا فَرَاهَةِ
 الْحَيْسِ وَجَعَلْتُ الْمَرْوَجَ كُلَّهَا حِمِي * دَكْتُ * جَذَامَ الْمُرْدَانِ
 وَرَسَمَ الْأَوْلَادِ وَمَسَحْتُ جَمِيعَ الْجَوَارِي فِي صُورَةِ أَبِي رَمْلَةٍ
 وَرَدَدْتُ شَطَاطَ خَلْقِكَ إِلَى جَعُودَةٍ * أَبِي حَشَّةٍ وَكُنْتُ أَوَّلَ
 مَنْ سَنَّ يَبَعَ رَجُلَانِ فِي النَّخَاسِينِ وَفَتَحَ بَابَ الطُّلْمِ
 أَصْحَابَ الْمَطَالِمِ وَحَوَّلْتُ إِلَيْكَ عَقْلَ أَبِي دِيَارٍ وَطَبِيعَتُ عَلَى
 بَابِ مَانَوِيهِ * وَأَعْنَتُ عَلَى مَوْتِ لَنْتَمِمْ وَغَضَبْتُ * الْمَصْرَعِ
 الْأَشْنِ وَاسْتَجَبْتُ * لِلدَّيْكَ الْأَفْرَقِ وَأَحْبَبْتُ صَالِحَ بَنِ حَنْيَنٍ
 وَأَحْوَجْتُكَ إِلَى حَسَامِ الرِّيشِ وَكَانَ أَبُو * الشَّيْخِ صَدِيقِي
 وَدَرَسِي مِنْ شَيْعَتِي * وَرَفَسْتُ حِمْرَةَ رَفْعَةٍ شَدِيدَةٍ وَرَكَلْتُ
 مَرَّةً رَكْلَةً صَعْبَةً ، (٣٧) لَكِنْ * مَا تَرَكْبُنِي بِهِ مَرْفَاً

ولكن في هذا العقاب متعدياً .

جعلت فداك ، لا تعرض لعداوة عقلاء * الرواة ولصينة
حفاظ المثالب واللسان من قسده * تعرف * بالصدق والتواخي
وبقطة الخسطل * والتكسب ، ما وجدت عن ذلك مشدحة
ووجدت نذهب عنه وسعاً . ولا تعرب واداً وان
اصطرك عواد ، ولا تجعل طول الصعبة سبباً للتضجر .
واصبر على خلقه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف
* تفرده * وملاحة الصديق * أهن . والعلم * بأفكار الذنوب غرض
وحديثه الذنوب في العقاب تنبيه . ولن يعرف العقاب من
يجعل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة في
الأقدار . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب اليك
مقدار عقابك عليه ، فانظر في علة وفي سببه وإلى معدن
الذي منه نجم وعشته الذي منه ذراح ومفرسه الذي فيه
قبت ، وإلى جهة صاحبه في لتائب (٣٨) والتبرع وفي التزوع
والثبات ، وإلى قبحته عند التقريع إلى حياته عند التعريض
والى فطنته عند * الرشق والتودية ، فإن فضل المطنة ربما
دل على فرط الاكثراث ، وعلى قدر الاكثرث يكون الاقدام
والاحكام . فكل ذنب كان سببه الدالة وضيق صدر
وغلظ طباع وحدة مراري ، * من جهة تأويل أو من جهة

* غلظ في المقادير أو من طريق * فرط الانفة وغلبة طباع
الحية * من بعض الجفوة أو لبعض * الأثرة ، أو من جهة
ستحققه عند نفسه وفيما زين له من عمله ، وأنه مقصر به
مؤخر عن مرتبته ، أو كان مبلغاً عنه أو مكذوباً عليه ،
وكان ذلك جائراً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت دنوبه من
هذا الشكل وعلى هذه الأسباب وفي هذه المجاري ، فليس
يقف عليها كريمة . ولا يلتفت لها حليم . ولست أسميه بكثرة
معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعمه وعلمه غائباً لطبعه ،
وحق يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع
للحكم والقدره والفهم . فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له
إلا البيغضة ، فهو لم تعرض لصاحبه بعقب دون قعر حنم ،
تعدرك كثير من العقلاء ولصوت رأيك عالم من الأشراف .
ومنى كانت علة طبيعة الداء وخلقه الشرارة والتسرّع ،
فاقتله قتل العقارب وادمغه دمع رؤوس الحيات . وإذا كان
من لا يسي فيك القول ولا يرصدك بالمكره ، إلا لتعطيه
على الخوف وتمنع عرضك من حمة التقية ، فامنع جميل
رفدك واحتل في منعه من قتل غيرك فإنك إن أعطيته على
هذه الشريطة وأعظمته من هذه الحكمة ، فقد شاركته في
سب نفسك واستدعيت الألسنة ابتذلية إلى عرضك وكنت

عونا لهم عليك . وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره وأنت فيه * فسيئه ، إلا أن عليك غرمة وله غنمه .
ومن العدل المحض والإبصاف لصحيح أن * تحط عن الجود بصف عقابه وأن * تقتصر منه على بعض مقداره ، لأن ألم حسدك قد كدك مؤونة * شطر غيظك عليه .
وأما الوادة فلا تعرض له البتة * ولا تلتفت لفته ولو أتى على الحرث والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغتر بقوله أنتي واد * ولا تحكم له بدعواه أنتي جدي وامي (٣٩) .
واطرأت في حديثه وإلى مخارج لفظه * وإلى الحن (١٠) قوله وإلى طريقته وطبيعته وإلى خلقه وخليقته وإلى تصرفه وتضمته وإلى توقفه وتهوؤه ، وتأمل مقد رجزعه من قلة اكترائك ونظر إلى غضبه عليك ولك وإلى انصرافه عن انصرف عنك وميله إلى من مال اليك وإلى تسلمه من شره وتعرضه له وإلى مداومته وكشف قناعه . بسل لا يقضي به يجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع اقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهود حتى تنظم الحالات وتنوي فيه الإزمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حصة مقصورة على محبتك ومحنة على نصيحتك بالعلل التي توجب الأفعال والأسباب التي تسخر القلوب لمودات ، كالعلل الثابتة

في الصنعة والأسباب الموجودة مع مول العتاقة . فإن عنها خلاف علل مول الكلالة ، وخلاف على الصديق الذي لم يزل يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك امتيجابك ، ولا سيما إذا كانت الصنعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عذرتها . فإن أنت لم تحكم له بالفاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيقها إليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية مع ترادف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبر يثبت زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور أشد تثبيها من شهادات الرجال . إلا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة برهان ، لأن الأدليل لا يكذب ولا ينافي ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة اللسان لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائما .

ومعد ، متى صار اختيار النخل عن الررع يحقد الإخوان رمق صار تفصيل الحب وتقريض قشر يورث الهجران ، متى تغيروا هذا التمييز وتهالكوا هذا التهالك ومتى صار غديم السخلة ملته وتفصيل السفلة * نخلة ، ومتى صار الحكم نتيجة سببا وللكرمة صبرا ، ومتى تكون فيها ديبسة استحكم فيها بصيرة وتحدث عنها حمية .

وقد كنا نعجب من جرب السوس في خرغ ثاب ومن

حربُ بُعَاثٍ في مخرفِ تمرٍ ومن حربِ غطفانٍ في سبقِ دابةٍ ،
 فبُعَاثُ أنتَ تنوعُ من العجبِ أبطلَ كلَّ عجبٍ وأنتَ بكلِّ
 غريبٍ وحسنٍ عندنا كلِّ قبيحٍ وقربٍ عندنا كلِّ بعيدٍ . فساكن
 جهلتُ . أعزَّكَ اللهُ - غضبكُ فثلي جهلٌ ما لا علةَ له ، وإن
 عجزتُ عن احتلالِ عقيدتكِ فثلي ضجٌّ مما لا يُصَيِّقُ حلقهَ ، ولا
 عارٌ على جازعٍ إلا فيه يمكنُ في مثله الصبرُ ولا لومٌ على حافلٍ
 فيما لا ينجحُ في مثله المكرُ . وليس هذا أولُ شركٍ نصتَه
 ولا أولُ كيدٍ . أرغتهُ ، ولا هي بأولِ ربيعةٍ غطيتَها
 وسترتها وحيلةً أكنثها وربصتها . وقد كانت اتقيةً والاقتصاد
 أسلمَ ، بل كان العفو أرحمَ والتغصنُ أكرمَ . ولا خيرُ في
 عقوبةٍ تُشجيتُ العدوَّ للقادمِ وتُبْنادي بها العدوَّ الحادثُ ،
 والآفةُ أبْلغُ في الحرمِ وأبعدُ من السمِّ وأحمدُ مغتةً وأبعدُ من
 خرقِ العجلة . وقد قال الأولُ : عليك الآفةُ فإياك على إنقاذِ
 ما أنتَ مُوقِعُهُ أقدرُ منك على ردِّ ما قد أوقعتهُ . وقد
 أخسأ من قال :

قد يُدركُ الثاني بعضَ حاجتهِ

وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ
 بل لو قال : والثاني يدركُ حاجتهِ أحقُّ والمستعجلُ
 بفوتِ حاجتهِ أخْلَقُ ، لكان قد وفَّى المعنى بحقه وأعطى

انسطَ حظُّهُ ، وإن كان القولُ الأولُ موزوناً والثاني منثوراً .
 ولولا أنهُ اشتقَّ المستعجلُ من العجلةِ لما قرَّنه بالثاني ، وينبغي
 أن يكونَ الذي غلظه قوطهم : رَبُّ عَجَلَةٍ تَهْبُ وَرَيْثُهَا ،
 فجعلَ الكلامَ الذي خرجَ جواباً مدمماً بعرضٍ من السببِ
 كالكلامِ الذي خرجَ ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .
 وقد سمَّيتُ العنصَ عَجلةً ورَيْثاً فمضَى على الرِثِّ بكثرةِ الفوتِ
 وبقدَرِ ذلك من المعجزِ ، وعلى العجلةِ بقلةِ النجحِ وبقدَرِ ذلك
 من الخرقِ وارِثٍ والآفةِ في بدوِّ لأملٍ * وادراكِ السعةِ كاستنارِ
 الفرصةِ واهتبالِ الفرصةِ * والآفةِ وإن طالَتْ * واستنارِ الفرصةِ
 وإن كانَ في غايةِ السرعةِ * فليسَ من جنسِ العجلةِ . ورَبَّتْ
 كمةٌ لا توضعُ إلا على معنائها الذي جعلتْ حظُّهُ وصارتُ هي
 حَقُّهُ * والدالةُ هي * عليه دونَ غيره * كالجزمِ والعلمِ والحلمِ
 والرققِ والآفةِ والمداراةِ والقصدِ والعدلِ والانتهازِ * والاهتبالِ
 واللباسِ والأمنِ والخرقِ والعجلةِ والمداهنةِ والتسرُّعِ والغزوِ
 والانتصيرِ . ورَبَّتْ كمةٌ تدورُ مع * خلقتها وتقلبُ مع
 * جزمتها وبإرادةِ * صاحبها وعلى قدرِ ما تقابلُ من الحالاتِ
 وتلاقيِ من الأسبابِ ، كالجَبِّ والبغضِ والغضبِ والرضا والعزمِ
 والآرادةِ والإقبالِ والادبارِ والجدِّ والفتورِ * لأنَّ هذا البابَ
 الأخيرَ يكونُ في الخيرِ والشرِّ ويكونُ محموداً ويكونُ مدموماً .

وصاحب المجلة - * أعزك الله - صاحب تحرير ومخاطرة :
 * ان ضمير لم يحمله * عام وان لم يظفر قطعه اللام . والريث
 أخو المجزة ومقرون بالحسرة وعلى مدرجة الالة . وصاحب
 الالة * ان ظفر نفع غيره بالفم ونفع نفسه بثمره العلم ،
 * وطاب ذكره ودام شكره وحُط في ولدائه ، وان حرم
 فبسوط عذره ومُصَوَّب رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجد
 من عز حزمه * ونبل صوابه ، ومع عه بانتي له عند العلاء
 وبمذره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان لأسد بن عبد الله - وهو
 على خراسان - حين مر به وهو يدهق في سبته : ان كنت
 تُعطي من رحم فرحم من ظلم . ان السموات تنفرج لسعة
 المظلم ، فاحذر من ليس له ناصر الا الله ، ولا جنة الا الثقة
 بنزول لتغير ، ولا سلاح الا الابتغال الى مول لا يعجزه شيء .
 يا أسد ان البغي يصرع أهله ، وان الظلم مصرعه وخيم ،
 فلا تفتقر بإبطاء العقاب من ناصر متى شاء أن يثبت أغصان ،
 وقد أملى لقوم كي يزدادوا انما . وجميع أهل السعادة اما لم
 من ذنب واما تارك الإصرار . ومن رغب عن التادي فقد نال
 أحد الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا نهاية له الا دار
 * الشقوة . وشواء - جعلت فداك - ظمت بالبش والمشم

أو ظمت بالدحسن والدين ، فشاو لبك ، وناظر حرمك ،
 وقف قبل الوثبة ، واحذر زلة العدم . وقد قال صاحبكم : من
 استشار الملاة وقد طبعته الاستطراف وحمل الخطرة ذباً
 والذنب ذوباً ومقدار الطرفه اصراً والصغير كبيراً والغليل
 كثيراً ، عاقب على المتروك الذي لا يُعْبَأ به وبلغ بالطر الى
 حيث لا بقيّة معه ، ورأى أن الطبيعة التي لا حلة معها
 والتخليج الذي لا تجمل معه الحزم الممود ، وأن الاعتراف في
 كل موضع هو الرأي الأصيل . وقال أيضاً : من كانت طبيعته
 مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده الذي لا يكذبه
 والمتأمر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما يهواه على ما لا
 يهواه ، ولم ينصر نال الإخوان من الطارف ، ولم ينصف
 المملول المبعّد من المستطرف المقرب ، ولم يخف أن تجذب به
 العادة وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حجبها ويصورهم
 في كتب مقروء أو لفظ مسموع ، ثم يعرضها على جهنمة
 المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار الا من لا يدري
 أي النوعين ينبغي وعلى أيها محامي ، وأهلاً بآؤه : فإن لم
 يستمس ذلك ، بما فضل له من مكروء العادة ، لم يزل
 متورطاً في الخطأ مغموراً بالدم .
 سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد عيري ، أو كانت

كثير علي من غير أني تنصني وتقول : اني لأعجب من ترك
 دفاتر عمله متفرقة مبعثرة وكراويس لخدمته غير مجموعية ولا
 منظومة ، كيف يعرضها للتخرب والتلف لا يمنعها من التفرق ،
 وعلى أن الدفاتر إذا انقطعت حزامته والمحل شداده وتحرمت
 ربطه ولم يكن دورنه وقاية ولا جنة تفرق ورقه ، وإذا
 تفرق ورقه ، اشتدت جهه وعسر نظمه وامتنع تأليفه ، وربما
 ضاع أكثره . والدفاتر أجمع وضم الجلود لها أصون والحزم
 لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشياء أن تؤلف ،
 فإن التأليف يريد الأجزاء الحسة حساً واجتماع يحدث
 للتساوي في لصف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت
 بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أداها فقد رأيت
 أقصاها ، فإن شطت لقراءة جميعها مصبت فيها . وإذا كانت
 منظومة ومعروفة المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب القفاطر
 على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وحفت
 عليك مؤونتها وقللت فكريتها ، وصرفت تدبير العناية إلى
 بعض أمرك وادخرت تلك القوة لئلا يعبرك . وعي أن
 ذلك أدل على حتك للعلم واصطباغك للكتب ، وعلى حسن
 السياسة والتقدم في احكام الصناعة . وقلت : لأمر ما جمعوا
 أسباع انقراآت وسورته في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه

مفرقا في الصدور ولا مبدداً في الدفاتر ومفرقا في القفاطر ، على
 ذلك أجمع المسلمون والسابقون الاولون والائمة الرشيدة والجمعة
 المحمودة ، فتوارثه خلف عن خلف من تبع عن سابق وصغير
 عن كبير وحديث عن قديم . ولم أشك في أنها نصيحة حازم
 ومشورة واثق أو رأي حضر أو حكمة نبفت أو صدر حاشرف
 يملك أو علم قاض قلم يرد ، استعمله من استعمله وتركه من تركه .
 فلما أخذت بقولك وصرت إلى مشورتك ، وأكثر حمد الله
 على إفاضتك من العلم وحفظ عديتك من القل ، وجمعت
 البعض إلى البعض واشكن إلى الشكن ، وتقدمت في استجادة
 الخلود وفي تمييز الصنائع وفي تحير الساعات ، وغرمت مال
 وشغلت البال ، وجعلتها مصحفاً ومصحفاً وأجملتها صنفاً صنفاً ،
 ورأيت أني قد أحكمت شأني وجمعت إلى أقطاري ، ورأيت
 أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنسر فيها وأنا منتصب ،
 استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت لأسافل مثقلة بالأعالي ،
 وإذا كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ،
 ولأن ذلك أبقي على نور البصر وأصلح لقوة الناظر ، إذا كل
 واحد من هذه المصاحف قد اعجز يدي عن ثقل حرمه وضيق
 صدري بحذاء حجمه ، وإذا ثقل أسكأ الصدر وأوهن العظم .
 وإذا أنا إن نظرت فيها وأنا جالس سدرت عيني وتقوس طهري

واجتمع الدم في وجهي وأكهرت بصري على غير جهته
وأجريت شعاع ناظري في غير محراء . وقد علمت - أبقاك
الله - مع خبرتك بمصالح الأمور ومواقع المدفع والمضار ثم
بمصالح العباد وبلاد ، أن من كانت على مقطع جبل أو على
شرفات قصر ، فأراد رؤية السماء على بعدها وجد ذلك على
العين سهلاً خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قربها وجد
ذلك على العين عباً ثقيلاً . فإن بدا لي أن يقاتل عيني به انعبد
أو تواجهي به الأمة كلفت أخرق الناس كفاً وأقلهم وفقاً
وأكثرهم التفتاً وأحضرهم نعاساً وأقلهم على حال واحدة ثباتاً
وأجلهم بمقدار الموافقة والمقادير المتقابلة وبحط اليد ورقمها
وإمالتها ونصيبها ، ثم رأيت في تصجرهم وتكرهم وفرارهم
منه ما صير تجشني لثقل وزنه ومقاساتي لجفاء حجمه ، أهون
على يدي وأخف على قلبي فإن تعاطيته عند ذلك بتفسي فشقاء
بحضري وإن ألزمتني بخيري فغبط قاتل ، وحق صارث الحال
فيها داعية إلى ترك دورها والمعاودة لقرامتها مع ما كان فيها
من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومن شحظ الطبيعة
وتمكن حسن العادة . ولو لم يكن في ذلك إلا الشغل عن خواص
الحائضين والبعد عن هو اللامعين ، ومن النية للناس والتمني لما
في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والمعرض

عظيماً . ومتى ثقل الدرس تشاقلت الشمس وتفاعست الطبيعة ،
ومتى دام الاستئصال أحدث المجبران ، وإذا تطاول الكدر وسخ
الزهد ، وفي ترك النظر عمي البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلال
حد الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، فإنه على
قدر غريزة العقل تصح الحيوان وتفسد ، وعلى قدر كثرة
الحاجة يتحرك الجارحة ويتصرف الناس ، ومع قلة الحركة
وبعد المهد بالتصرف يحدث العمى ويظهر العجز ويبطئ
الخاطر ، ومع ذهاب البين يفسد البصيرة ، وفي فساد البرهان
هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغت ما أردت ونلت ما
حاولت ، فحسبك الآن من شج من يسوك ومن قتل من يقتل
فبك .

جعلت فداك ، إنه ليس يومي عنك ، بواحد وأذا على
عقبك أوحده ، وليس ينبغي منك معقل وعقل ولا مفارة
سبح ، ولا قعر بحر ولا رأس طرد ، ولا منى (٤١) ولا
دغل ولا نفق ، ولا مفارة ولا مطمورة . وليس ينبغي
منك إلا مفارة (٤٢) المهلب ، فإن أعرتني قلبه وعلمتني حيكه
وأمكننتني من سكينته ، وإلا فأنا أول من ابتلعته تلك الحية .
ولا والله إن بي قوة على الثعبان فكيف التنين ، ولا
نعم القرعة فكيف الأصل . أعفني من حبة المهلب ثم اقلني أي

تقتلني شئت . إن احترست منك أُنصت لنفسي كدأ شديداً
وغماً طويلاً ، وطل اغترابي وافتراق الألفي ، وتعرضت
للعدو وتحرشت بالسباع ، وإن استرسلت إليك لم تر أن
تقتلني إلا شر قتلة . وآلمها ولم تعذبني إلا بأشد المقم وأطولها ،
ولو أردت ذبحني لاخترت الكليل على المرهف والتطويل على
التذفيف ، حتى كأنني علمت عليك شاه مات أو أكلت
سبعة وأطمعتك واحدة .

ولقد تقدمت في المكر واستظهرت علي في الكيد ، حتى
توليت ذلك في صغار كتبي وفي لا تحمل به من دوام أمري ،
وعلمت أن الدرس لليل وأن الا للسهار ، وأن
الكتاب لا يقرأ ليلاً إلا واليران زاهرة والمصابيح مقربة ،
وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظره ، فإنه أبداً أقرب
مصباحاً وأعظم ناراً ، وأن المحرور المحترق والممرور المنتهب
واليابس المتهافت ، إذا كانت صاحب كتب ودرس فيه لا
يجد بداً من الصبر على ما يحرقه ويعميه ، أو الترتك للقراءة
فيها والتعرض لها ، فخيرتني بين العمى والجهل ، وما فيها
حظ مختار .

وقلت إذا سخن بدنه سخن بوله ، وإذا سخن بوله جرح
مئاته وأحرق كليته وطبخ فضول غذائه وجفف ما فضل عن

استمر له ، فأحاله حصاً قاتلاً سخرأ جامداً ، وهو دقيق
انقصيب ضيق الإحليل ، فبدأ حصاه بورثه الأسر ، وفي ذلك
الأمس تفت البصر أو غية التعاب . وقت : فإني ابتليت
بطول عمره أمام في مشغولاً به ، وإن ذهب عما فقد كفانا
مؤونة الحيلة في امره .

جعلت فداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ، وما هذا
التتبع لعوامص المسألة والتعرض بدقائق المكره ، وما هذا
التفعل في كل شيء يجعل دكمي وما هذا الترقى الى كل ما
يحيط من قدرتي ، وما عليك أن تكون كتبي كلها من لورق
الصيني ومن لكاعد حراساني . قد بي لم زينت لتسخ في
الجلود ولم تحششتني على الأدب ، وأنت تعلم أن الجلود جافية
الحجم ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت وإن كان يوم شقي
استرخت ، ولو لم يكن فيها لا أنها تفض الى أرواها نزول
الغيث وتكره اني مالكيها الحب لكان في ذلك ما كفى ومنع
منها ، وقد علمت أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطرأ ولا
يقطع فيها جلدأ . وإن نديت فصلاً عن أن تظطر وفضلاً عن
أن تعرق ، استرسلت وامتدت ، ومتى جفت لم تعد الى حالها
الامع تقبض شديد وتشنج نسيج . وهي أنت ربحاً وأكثر
ثماً وأجمل للفن : يغش الكسوفي بالواسطي والواسطي

بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ربحها وينجاب شعرها ، وهي
أكثر عقداً وعجراً وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، واصفرة اليها
أسرع ومرة استعاق الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب
علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاء حمل
بغيره ، ولو أراد مثل ذلك من القطبي لكفاء ما يحمل مع
زاده . وقلت لي : عليك بها فاتها أحمل للحث ولتغيير ،
وأبقى على تعاور العارية وعلى قلب الأيدي ، ولرديدها
ثمن ولطرسها مرجوع ، والمد منه يسوب عن جدد . وليس
لدفتر القطبي أثمان في السوق وإن كان فيها كل حديث طريف
ولطف ملبح وعلم نفيس ، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد
الورق جلوداً ، ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث
لكانت أثنى ولكانوا عليها أسرع . وقلت : وعلى الجلود
يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكالك والعهود وفي الشروط
وصور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومما تكون
خرائط البرد ، ومن أصلح للجرب ولعناص الجرة وسداد
القارورة . وزعمت أن الأرضة إلى الكاعد أسرع ، وأكثرت
أن تكون القارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد
أسرع وله أفسد ، فكنت سبب الضرورة في اتخاذ الجلود
والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر

الخفاف في الحيل إلى المصاحف لقي ثمن الأيدي وتحطيم
الصدور وتقوس الظهور وتعمي الأبصار . وقد كانت في
الواجب أن يدع لناس اسم المصحف لشيء الذي جمع
لقرآن دون كل محلد ، ولا يروموا جمع شيء من أبواب
التعلم بين مدققتين فيلحقوا بما جعله السلف لقرآن غير ذلك
من العلوم .

دع عن كل شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولد
يحيي ذكرى ويحيي ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ،
ولا يأكله مرأى يرصدي وابن عم يحسني ، ولا يرتع فيه
المعتدون في زمان السوء ، ولا تصنع فيه الرجل ويقضي
به الدينام ، فقد رأيت صنيعهم في صل المفقود والماعة
والوارث الضعيف ومن مات بغير وصية .
'جعلت' فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود
به لأولاد الأصلاب ومما من تلك الأصلاب ، لأن الرحم
للمنة والقراية الملتصقة واللحمة الملتحمة وإن أملت التركة
وأنزعت إلى الورث فمما ما يأطرها ويثنيها ويحزنها
ويبيكها ويحرك دماها ويستغزر دمعها . وقد يشفع للولد
إلى أبيه . حال أبيته كانت من أبيه وابن العم الذي ليس بالبعيد
فيحتك من حسده وليس بانقريب الخنو على رحمه . وسببه

الجذب له إلى غنني مماتي أمتن من سببه إلى غنني بقائي ، فهو
إلى الخذل الموحية للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموحية
لدرقة والعطف ، وليس ينصرك إذا نصرك ولا يحامي عليك
لقربه منك ، ولكن لعله بأنه متى خذلك حل به ضعفك
واجترأ بعيد ضعفك عليه عدوه ، فهو يريد بتصره من لا
يجب عليه شكره ، ويقوّي ضعف غيره بدفع الضعف عن
نفسه .

جعلت فداك ، ما كان عليك من بُني صغير يكون لي ،
ولا سيما ولست عندك من يدرك كسبه أو تبلغ نصرته أو
يُعائن برئه أو يؤمل إمتاعه . وما كان عليك مع أكثر سبي
وضعف ركني أن يكون لي ربحانة أشبهها وثرة أضها ، وأن
أجد إلى الأماني به سبباً وإلى التلهي سلماً ، وأن تكثر لي
من جنس سرور الحالم ونقد ما يُمتنع به راجي السراب للامع ،
حتى حببت قصر عمري إلى وليتي وشوقته إلى ابن عمي ،
وحتى زدت فيما عنده مع كثرة ما عنده وحق صيرني حبه
لموتي إلى حب موته وتأميل مالي إلى تأميل فقره ، وحتى شغلني
كان يشغل عدوتي عني . وسواء أعيت علي أن لا يكون
لي ولد قبل أن يكون ، أو عبت علي أن لا يكون بعد أن
كان . فإنا نغضب الله على البنية والقصد وعلى التوخي

والعمد - كما أنته سواء أن تحذل في ألا يكون لي مال قبل
أن أملكه أو احتلت في ألا يكون بعد أن ملكته .
وكنتم لا أدري ما كان وجه حبك لعناتي وللتشديد بذكر
تراثي والتنويه باسمي ، ولا لم زهدتي في طلب الولد ورغبتي
في سيرة رهبان ، فإذا أنت لم ترفق ذكرني في الأعياء ، إلا
لتعرض ذنبي للفقراء ، ولم تكثر مسي إلا لتقوي العلة في
قتلي ، فإما مكيدة ما أبعد غوراً وما بها حفرة ما أبعد
قعرها ، لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة المسلك
وبعد الغاية .

والله لو دبرها الإسكندر على دار بن دارا ، واستخرجها
المهلب على سفين بن الأبرد ، وقتعت على هرثة في مكيدة
خرم بن خزيمه ، ولو دبرها لقيم بن لقمان على قحان بن عاد ،
ولو أداعها قيس بن زهير على حصن بن حديفة ، ولو
نوجت لكهان بني أسد على دهاة قريش ، لقد كان ذلك من
تدبيرهم نادراً بديعاً ولكن في مكابدهم شاداً غريباً ، وإنها
ترتفع عن قصير في كيد الزباء وعن جذيمة في مشاورة
قصير ، وما إخالها إلا وقدق على ابن العاص وتقمض على
ابن هند ويكن عنها أخو ثقيف ويسلم لها ابن سمية . هذا
والله التدبير ، لا يخاريق العراف وتروير الكاهن وتهاول

الحاوي ، ولا ما يلتجأ صاحب الرق (٤٣) (؟) بل
فضل فيها رضى الهند وقهرها حجرة ابل (٤٤) .

فلو كنت - إذ أردت ما أردت وسأولت ما حاولت -
رفعت قبل كل شيء الموانسة ، ثم أبيت المواقلة ، ثم قطعت
البر ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعملت الحير من ، ثم صرحت
بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحل ، ثم عادت
واقنصت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ،
لكنت واحداً من يصبر أو يجرع . فعلتي كنت أعيش
بالرفق وأتبلغ بحشاشة النفس وأعلش نفسي بالطمع الكاذب .
ولكن فجاءت احودث وبعثت اللاء ، لا يقوم ها الحجر
القاسي ولا الحبل الراسي ، فم تدع غاية في صرف ما بين
طبقات التعذيب إلا بلغتها ، فقد ميت الآن مع من تعيش ،
بل قد قتلتي من الآن تعاشر ! كما قال ديوسدالمسي لكسرى
حين أمر يقتله لقتله تميذه بلهذه : قلت أذ بلهذه وتقتلي ،
فمن يطرك ؟ قال : خلكوا سبله فلما الذي بقي من عمره هو
اندي اطقه بهذه الحجة . ولكي أقول : قد قتلتي مع من
تعيش ؟ أمع الشطرنجيين ؟ فقد سأل جالينوس : إياك
والاستمتاع بشيء لا يعم نفعه .

إن للكلام إما صار أفضل من الصمت لأن نفع الصمت لا

يكاد يعدو الصمت ونفع الكلام يعبر القائل والسامع والغالب
والشاهد والراعي والمبار . قالوا : وما يمدل من فضل الكلام
على الصمت أنك بالكلام تخبر عن الصمت وفضله ولا تخبر
بالصمت عن فضل الكلام . ولو كان الصمت أفضل لكانت
الرسالة صمتاً وكان عدم القرآن أنسل من القرآن ، وقد فرق
بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفصل وميز وحصل
حيث قال : وحيم الله امرأ قال غيراً فغنىم أو نسكت فسلم
فجعل حط السكوت السلامة وحسن ، وجعل حط القول الجمع
بين الغنيمة والسلامة ، وقبل يسر من لا ينم ولا ينم إلا من
سلم (٤٥) .

فأما الدواب فمن يضع المركب الكريم إلى المصنع
الكريم ، ومن يعدل امتاع بهيمة بامتاع أديب ؟ قالت ابنة
السمان . لم أر لها جربناً من جميع الأصناف أبلغ في خير
وشر من صاحب . ولما عزم بن زياد على الحفنة بعد أن كانت
تفحشها قال له جارقة بن بدر : ما أجيد أولى بتولتي ذلك من
الطيب . قال عبيد الله : كلا ، فإن صاحب !

والله لو نتجت في كل عام ألف شبدز (٤٦) وقهرت في
كل ليلة أربعة آلاف وترب وصار لك كل نهر المرك بدلاً
من بعض بابيك ، وأكلت رأسك الجنيد بن حاتم الأشيم

واجتلت بين الغر من افراط الشبق ، لما كان ينبغي لك أن
 تعاملنا بهذه المعاملة ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتل
 ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل
 ولو عفوت البنة لكان أمثل . ان الاعتزام على قليل العقاب
 يدعو الى كثير ، ومتبدىء العقاب بعرض لجساج ، وليس
 يعاقب الا غضبان ، والغضب يغلب العزم على قدر ما يمكن
 ويحيثر اللب بقدر ما سلط ، والغضب يصور لصاحبه مثل ما
 يصور السكر لأهله ، والغضبان يشغله الغضب ويغلب به الغيظ
 وتستفرغه الحركة ويمتلئ بدنه برعدة وتترايل أخلاطه وتتحل
 عقده ولا يمتريه من الخواطر الا ما يزيد في دائه ولا يسمع من
 جليبه الا ما يكون مادة لفساده ، وعلى أنه ربما استمرغ حتى
 لا يسمع وأحرق حتى لا يفهم . ولولا أن الشيطان يريد ألا
 يخلو من عمله ولا يقصر في عاداته ، لما وسوس الى الغضبان ولا
 زين له ولما أغراه ولا فتح عليه ، اذ كان قد كماه وبلغ أقصى
 منه . وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب ثابته شيء الا
 صرعه ولا يدارعه قبل انتهائه وادماره شيء الا قهره ، وما
 يحتمل له قبل هيجته ويتوثق منه قبل حركته ويتقدم في حم
 أسبابه وفي قطع علله . فأما اذا تمكن واستفحل وأذكى ناره
 واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ومن أعوانه سمعاً

وطاعة ، فلو سعطته بالتوراة ووجعته بالانجيل ولدته بالرور
 وأفرغت على رأسه القرآن اقراغاً وأتيت بآدم عليه السلام
 شعيماً ، لما قصر دون أقصى قوته وتمتني أن يمار أضعاف
 قدرته . وقد جاء في الأثر : ان أقرب ما يكون العبد من
 غضب الله اذا غضب . قال قتادة : ليس يسكن الغضب الا
 ذكر غضب الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عبيد : ذكر
 غضب الرب يمنع من الغضب . الا أن يريد الذكر باللسان ،
 ويسمى المتوحد غضبان والذكور حقوداً .

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيتك في عقابي التماساً
 للعفو عني ، ولا تقصر عن افراطك من طريق الرحمة لي .
 ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله والسيطات على
 دينه ، ويعلم أن للعقل خصوماً ولكرم أعداء ، وأن من
 الصف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك من
 عدوه ، وتمسك امساك من لا يبرئ نفسه من الهوى ولا
 يبرئ من الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك أن تزل ولعقلك
 أن يهفو ، فقد زل آدم عليه السلام وهفا وعصى ربه
 وغوى وغرته عدوه وخدعه خصمه وعيب باختلال عزمه
 ونكون قلبه الى خلاف ثقته ، هذا وقد خلقه الله بيده
 وأسكنه في دار أمنه وأسجد له ملائكته ورفع فوق العالمين

حرجته وعلمته جميع الأسماء بجميع المعاني ، ولا يجوز أن
يُعطى الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له الدلول
عليه . والاسم بلا معنى لغو كالطرف الخالي ، والاسم في
معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح ، اللفظ لمعنى بدن
والمعنى لفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معان مكاث كن
وهب شيئاً جامداً لا حركة له شيئاً لا حيز فيه شيئاً لا
منفعة عنده . ولا يكون اللفظ اسماً الا وهو مضمن بمعنى ،
وقد يكون معنى ولا اسم له ولا يكون سم الا وله معنى .
في قوله جل ذكره : وعلم آدم الأسماء كلها ، اخبار أنه
قد علمه للمعاني كلها . ولنا نغني معاني تراكيب الألوان والطعوم
والأراييح وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تناسي . وليس
له فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الوهم اسم ، الا أن تدخله
في باب العلم فنقول شيء . ومعنى الأسماء التي تدور بين الناس
انما وصفت علامات الخصائص الحلات لا لتنتج التركيبات .
وكذلك خاص الخاص لا اسم له ، الا أن نجعل الإشارة
الموصولة باللفظ اسماً . وانما تقع الأسماء على العلوم المفصورة ،
ولعمري انها لتحيط بها وتشتمل عليها . فأما العلوم المبسوطة
فانما تبلغ الأسماء مبالغ الحاجات ثم تنسي . فإذا رعت أن
الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها فانما يعني نهاية

المصلحة لا غير ذلك .

هذا و آدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوي وأنت
أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة
والفرع أولى بالصنف . قلت أسألك أن تمسك الاريثا
تمسكك اليك نفسك ويرتد اليك ذمك ، وحق توارن بين
شفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحليم وما يجلب
من السلامة وطيب الأحداث ، وترى تصرم الفرس وما
يفضي لأهله من فضل القوة . على أن العقل اذا تحلص من
سكر الغضب أصابه ما يصيب المغمور اذا خرج من سكر
شرابه والمهزم اذا عاد الى أهله والمرسم اذا أفاق من برسامه .
وما أشك أن العقل حين يطلق من اساره كالمقيد حين يُفك
من قيوده ، فإنه يمشي كالتريف ويحجل كالغراب . فإذا
وجب عليك أن تحذر على عقلك محامرة داء الغضب بعد
تحلصه وأن تتعمده بالعلاج بعد مباينته له وتحلصه من يده ،
فأطشك به وهو أسير في ملكه وصريع تحت كللكه ،
وقد غطه في بحره وغمره بفضله وقوته .

وقد رعموا أن الحسن حضر أميراً قد أقرط في عقوبة
بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يحفل بكلامه وخوفه فلم يتعط
برجره ، فقال انك انما تضرب نفسك ، فان شئت لأن

فأقول "وان شئت فأكثر . ومعاد الله أن أقول لك كما قال
الحسن لذلك الطالم المعتدي والمصمم القسي . ولكي أقول :
اعلم أنك تضرب من قد جعلك من قتل في حل . وان كان
القتل يحل باحلال المقتول ويسقط عنه عقبه بيهة المظلوم ،
ولو أمكن في الدين تواهب قصاص الآخرة في الدنيا ، وان
كان ذلك بما تجود به انفس يوم الحاجة الى الثواب والى دفع
العقاب ، وكان الوفاء مصموماً ، لكنك أول من أسمحت
بذلك نفسك وانشرح به صدره .

"جعلت" فذاك ، علم أي قد أحصيت جميع أسباب
التعادي وحصلت جميع علل التصاعن ، الا علة عداوة الشيطان
للإنسان ، فني لا أعرف الا بحارها في الجملة ولا أحق خاصتها
على التحصيل ، وعلى كل حال فقد عرفت من طريق الجملة
وان جهلتها من طريق التفصيل . فأمّا هذا التجسّي فلم أعرفه
في خاص ولا عام .

فمن أسباب العدوات تنافس الجيران والقرابات وتحاسد
الأشكال في الصناعات ، ومن أمث أسيابهم الى الشر وأسرعها
الى المروءة والعقل وأفدحها في العرض وأحطتها على الدين ،
التشاح على الموارث والتنازع في تحوم الأرضين ، فان اتفق
أن يكون بين المتشاكين في القرابة كان السبب أقوى والداء

أدوى ، وعلى حساب ذلك ان جمعت هذه الخصومة مع الجوار
والقرابة واستواء الخط في الصفة . ولذلك كتب عمر -
رضي الله عنه - الى قضائه أن : "تواقرانات عن حر القضاء ،
فان ذلك يورث التصاعن .

ولم أعجب من دوام ظلمنا وثباتك على غضبك وغلط
قلبك ، ودورنا بالمكر متجاوزة ومازلنا بمدينة السلام
متقاة ، ونحن ننظر في علم واحد ورجع في السعة الى
مذهب واحد ، ولكن شدة نخفي منك اليوم وأذا بفرغنة
وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب سلاح ،
وصناعتك جودة الخط وصناعتي جودة المحو ، وأنت كاتب
وأنا أمّي ، وأنت خراجي وأذا عشري ، وأنت زرعي وأنا
نحلي . فلو كنت اذا كنت من بكر كنت من قيم كل لك
الى العداوة سبب ولى المنافسة سلم .

أنت أبداك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ،
وأنت أصلع وأنا أزع ، وأنت صاحب برادين وأنا صاحب حبر ،
وأنت ركين وأنا عجول ، وأنت تدبر لنفسك وتقيم أود غيرك
وتتسع لجميع الرعية وتبلغ بتسييرك أقصى الأمّة ، وأنا
أعجز عن تدبير نفسي وعن تدبير أمتي وعبيدي ، وأنت
"منعم" وأنا شاكر ، وأنت مالك وأنا سوقة ، وأنت

مصطنع وأنا صنيعه وأنت تفعل وأنا أصف ، وأنت مقدم
وأنا تابع ، وأنت اذا فارغت الرجال وناهضت الأكفاء ، لم
تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك لو كنت قلت كذا كنت
أجود ولو تركت قول كذا لكان أحسن ، أمضيت الأمور
على حقائنها وسلمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ، فلم
تقدم بعد قول ولم تأسف بعد مكوثي ، وأنا إن حكمت
ندمت ، وأنت جازيت أبعدت ورأيي لك دبري ، وأنت
تعد في الشطرنج زرب وأنا في الشطرنج لا أحد .

وما أعرف هنا اجتماعاً على مشاكلة ، إلا في الايثار بخبز
الحشكار على الحواري والباقي على الجوزينج ، وأنا جميعاً
ندعي الهندية وفقد بلغ الآن من جرمي في مساواتك في
خبز الحشكار وإيثاري الباقي والمعرفة بتقدير المدن وإجراء
الفني ، أن أسمى من جميع لأرض وآت تجعل في دمي الجمائل .
فاني قد هجرت الخبر البتة إلى مواصلة التمر وتزلت لوبر
بدلاً من المدرس .

دعنا الآن فانك فارغ : إني الله يعلم وكفى به عليماً
وكفى به شهيداً وكفى به خفيظاً ووكيلاً . وكفى بجرأة من
يعلمه ما لا يعلم جرأة وتعرضاً وكفى بخاله عند الله بعداً
ومقتاً . لقد أردت أن أفديك بنفسي في بعض كني ، وكنت

عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الملك ، قرأيت أن من
الحياة لك ومن اللؤم في معاملتك ، أنت أفديك بنفسي مبتة
وأن أريك أني قد جدت لك بأنفس علق والعلق معدوم .
ليس أن من قد فداك فقد جعل فداك ، ولكنها نهاية من
نهايت النعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومن أعلن الاجتهاد
لك واستسر خلاف ذلك ، فقد باقى وخسان وغش والام ،
وخلق بمن أخل بهذه الا يرضى حقاً ولا يرجع إلى صحة ولا
إلى حقيقة .

ثم أنت لا يشفيك مني السم المجهز ولا السم الساري فإنه
أعد غدية في التطويل وأبلغ في التعذيب ، لا ولا لعب الأفاعي
ودمية لدوامي ، فإنه يعجز الرق ويفوت ذرع الأطباء ، لا
ولا نار الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلا الجحيم ، ولا
يشفيك من الجحيم لا أن أرمى في سوان وفي أصطمة ناره
وفي معظم حريقه وفي موضع الصميم من لحيه ، بل لا تكتفي
بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ،
بل لا ترضى إلا بمذابح آل فرعون أشد العذاب ، بل لا
يرضيك إلا عذب ابليس الذي زين اختر للعباد وبشه في البلاد ،
ولدي خطاً الرب وعانده ورد قوله وغير عليه تدبيره ، ولم
يزدد لا شكاً ولجاجة وتنادياً واصراراً ، ثم لم يرص من

الجذب في مخالفة أمره وخلع العذار في شدة الخلاف عليه ، إلا
بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزته ، فجعل العزة
الماتعة من استخاطه سبيلاً إلى استخاطه ، والقسم الحاجز دون
إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال : « فيعزتك لأغوينهم
أجمعين » .

فلميك عداك الله - بابليس إن كنت لله تفضب ، أو
عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تشمى . لا ولكم استعمرني
واستضعفتني ، وجعلتني فرّوج الرقا ، وتريد أنت تتعلم في
معاينة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف
أضعف مني وعبد الله بن عيسى أسوأ خيراً مني .

سبحان الله يسلم عليك حيدر الأفشين وهلك عليك عمرو
الجاحظ ، ويسود بك أبعد البعداء ويشقى بك أقرب القرباء ،
وتتعافل عن مثل الجبال التماساً للتسلم وحباً للسلامة ،
وتتغفل إلى المحقرات طلباً للتعرض وحباً للشر . ومتى
قدرت على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه .
ومتى لم تتعافل عنه تكبراً أو تدعته إحقاراً ، ومتى أكثرت
لكبير أو ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فهنا إذا بين بديك
فكلني بخل وخردل ، فوالله إنك لتأكله غثاً رقيقاً غير امرئ وخبيثاً
غير شهيد .

لا والله لكأنك وقمت على مطبورة وظهرت برأس
حقن . كنت أظن أن الرشاقة والحيلم لا يجتمعان وأن
طرف الإنسان وإصالة الرأي لا يقترنان ، وأن النزق
لحفة مقرونان بخفة البدن وأن الركاة والأناة مجموعان لصاحب
الطمأنينة . حق رأيك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي
استدلت بك ضد ذلك الطن ، فتركتني حق إذا فارعت
رجل وتعرضت لشجى وشغلت نفسي بطلب الخصام
انقطعت إلى أصحاب القدود وجعلت عداوتي في تقديم القضاء ،
طال لساني بك وأظهرت الاستبصار في فصلك ، وجعلت
مخرج أخلاطك هو الحجة واعتدالك هو النهاية وطبيعتك هي
سكتة ، وزعمت أن منظر ك يغني عن خبرك وأن أولئك
يخجلون عن آخرك ، شددت علي شدة المهر لأرن وتسرع
في تسرع الغر النزق وألححت علي إلحاح الحق . كأنك لم
تعمل بما يشبع لك من اسم المتسرع وبما تضاف إليه من سخف
تبرع ، بعد أن تكذب قولي وتقد خبري . وقد قدمت
لنجربة في أن الحديد لا يكون حقوداً وأن لمصطع لا يكون
مضيقاً حاسداً ، فقصدت على رأسي إلى القياس المتعين
وأسدته إلى الطباع المعتدلة فقبضتها وإلى القضايا الصحيحة
برددتها .

لجميعه
أقول:
تفات
الله لن
روحاً
في من
يحتمل
أضك
طك به
ريب في
وقرابة
م مولدة
شاكسة
وأبعد من
وجوه
لي غربة وفي
إليه يشك
تضحكك

وقد قالوا بأجمعهم : حالان لا يقبلان الحسد ولا يتخلوان
من الرشد ، حال الصنيعة لمصطنعه وحال المولى لمعتقه .
فكيف إذا كان الصنيعة صديقاً وكان للخاصة محتلاً ، وإنما
صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد - مع كثرة
عددتها واختلاف أخلاطها وتباعد أماكنها - نفساً واحدة
وجسداً واحداً ، لا استواء الخواطر ولا يقاهاها على الإرادة .
فأنت وصديقك الموافق وخليتك ذو الشكل المطابق ، مستويان
في المحاب متفقان في الهوى متشاكلان في الشهوة ، وتعاونكما
كتعاون جوارح أحدهما وتساكما كتساك المتفق من طبائعهما ،
فاذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتزل
خليتك فقد عتزل بصفك بل النفوس المصنعة كنفسي المصنعة ،
فذهب بعضها هو ذهب جميعها ، موتي هو موت صديقي
وحياي هي حياة صديقي ، فلا تبعدني من قلبك بعد بدني من
بدنك ، فقد يقرب البغيض ويبأى الحبيب . ولعل بعض طبائعتك
المخالط لروحك أن يكون أعدى من كل عدو وأقطع من كل
سيف وأخوف عليك من الأسد الصاري ومن السم الباري .
ثم اعلم أن الموفق بمودته قليل وقد صار اليوم الممتد
عليه في صحة العقدة وفي كرم انبياء الشجرة عنقه مغرب .
ولا أعلم الكبريت الأحمر إلا أوجد منه ، وإني لأظن القناعة

ثمنه ، وما أكثر من جعل انقطاع حبه وضعف طبعه
انقطاع سببه قناعة . وقيل ليحيى بن خالد . أي شيء أفل ؟ قل :
سعة ذي الهمة لمعيدة بالعيش لدون ، وصديق قليل الآفات
غير الإمتاع شكور النفس بصيب . وضع المرح . لا والله لن
تروى على ظهرها موضعاً للسر ولا مكاناً للشكوى ولا روحاً
لنفسها ولا نصاً تسكن إليه . ولو أردت أنت تعرفني من
جميع لعائين رحلاً لقدرت على أحد يحتمس العيني ، ويحتمل
نفس قليل ويحتمل لعيني عديم .
إن الخير - أذك الله - في أيام كثرة كان قليلاً منك
في أيام قلته ، وإن شر في أيام قلته كان كثيراً منك به
في أيام كثرة . وأنت غريب في المصطنعين وأنا غريب في
صانع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقراءة
طبيعة الموافقة أقرب من نسب الرجم ، لأن الأرجام مولة
تجسد طمعة بالتقاطع ، وإن النحابة على طبع المشاكلة
التلاقي على وفاد من الطبيعة ، أبعد من التقاسد وأبعد من
التعادي ، ونسب التعادي عرص في طبائع الغريب وجوهر
في طبائع الأقرباء .
واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى الوحشة إلى غربة ، إلى غربة وفي
تكثر العيش وتحط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه تشك
نقصي إليه بذات نفسك . ومو رأيت عجباً لم تضحك

رؤيتك له بقدر ما يضحك إخبارك إياه . فمن أغلب عليك
من كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك . ولو أن شيتي
التي بها استعظمتك وكبرة سني التي بها استرحمتك ، اللسان لم
يحدثا علي إلا وأنا في ذراك ولم يحلا بي إلا وأنا في ظلك ، لكان
في شفاعة الكبرة واسترحام الصعف والوهنة ما يردعك عني
أشد الردع ويؤثر في طباعك أبين الأثر ، فكيف وقد أكرمتني
جديدا ثم تريد أن تهينني خلقا ، وقويت عظمي أغط ما
كان ثم تريد أن تومنه أرق ما كان . وهل هربت إلا في
طاعتك وهل أخلقي إلا مماناة خدمتك .

قل علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : رأي الشيخ
انصيف أحبا إليا من حلد الشاب القوي . وأنا أقول كما
قل أخو ثقيف . مودة الأخ التالد وإن أخلق خيرا من مودة
الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جيدته . وقال عبد الملك
بن مروان : رأي الشيخ أحب إلينا من مشهد العلام . وقال
بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه وليس بمان من بقي أثره ،
وما كمثل العقل ولا وفتر التجربة شيء كنقصان البدن
وكأخذ الأيام من قووى الأعضاء . وقال آخر : ما قبح
الرجال شيء كالوكان ، ولا أفسد الكريم شيء كحب
الاستطراف . وخير الناس من أتبع العصب مواقع الذنوب ،

وأتبع العقاب مواقع العصب ، ولم سح العصب مواقع الهوى .
ولقد منحتك جلد شابي كسلا وغرب نشاطي مقتلا ،
وكان لك مهناء وثمرة قواء ، واحتسنت دونك غرامه وعدمه
وكان لك عمة وعلي نعمة ، وأغصنتك عند إدار بدني قوة
رأي وعند تكامل معرفتي نتيجة لمعرفتي ، واحتملت دونك
وهن الكبر وأسقام الهرم . وخبه شركائك من أعطاك ما
صفا وأخذ لنفسه ما كدر ، وأفضل خلطائك من كفساك
مؤنته وأحضرك معونته ، وكان كلاله عليه ونشاطه لك .
وأكرم دخلائك وأشكر مؤمليك ثم لا يظن أنك تمني
حريل ما تحتل في بذلك ومواساتك مؤونة ولا تتابع
بحسانك إليه نعمة ، بل يرى أن نعمة الشاكر فوق نعمة
الواهب ونعمة الوادة المخلص فوق نعمة الجواد المقني ،
وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ماله إلى
مؤمليه والمتحرمين به ، تحسن نية الشاكر الوامق وحق
في الواد العارف . ولو اقتضيت جميع حقوقك عني وأنكرت
جميع حقوقي عليك ، أو جعلت معي عليك حقا لك ، ثم
رغمت أن حقت لا يؤدني إلى شكره وأن حقي لا يلزم حقه
أن إحساني إساءة وأن الصغير من ذنوبي كبير وأن اللثم مني
إصرار وأن خطاي عذر وأن عمدي كله كفر وأن كفري

وجب الطمع ويمنع من الزوج ، لما كان عندك ، وما اتسع قولي
 لأكثر من هذا العقاب ولا أشد من هذا العصب . وما ينبغي
 أن يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارئ النفس ، في دار
 البقاء لا في دار المصائب ، ولذي محور بي العباد ، بما هو تمزيق أو
 حد أو قود أو قصاص أو حبس أو تغريب أو اعراق أو
 اسقاط عدالة أو إلزام اسم العداوة أو عقاب بجمع لأثم والتفويم
 والتكيل ، فيكون مفضض الأثم أجراً له ومعدلاً أسبابه .
 وربما قصر الايقاع على السخط وجاور حد العصب ، وربما
 كان مقصوراً على مقدارهما ومحوساً على نهاية حيلهما . وبين
 كل عقاب نتيجة سخط ، وقد لا يسمى ذلك الموضع
 والمعاقب واجداً كما يسمى سخطاً ، ولا يسمى عاقباً كما يسمى
 غضباناً ، فيخرج كما ترى من أن يسمى سخطاً أو موجبة
 وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين
 ومن جميع القسمين وعلى أنه كان اخراجاً من دار الخلد
 والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة . مع ما في ذلك من أعراء
 الجلد والتسمية بالظم ، مع الوصف له بصعف العزم والافتقار
 بيمين الخصم .

والمجب أنك تصجر من طول مآلتك لعفوك مع حاجتنا
 إلى عاجل عفوك ، ولا تصجر بطول تشاغلك بظم صديقك مع

استفدتك من ظم صديقك . فلو كنت إنما تعمل ذلك لأدك
 تذا ضرب الشياط ورخص للعظام ، فجنب دندن أحمل والوسط
 في ظهر قاسم أحسن وأبدانها تحت لسياط أنت وان أرواحها
 أبقي وهي بأرواح الكلاب أشبه من طنائع الضباب أقرب
 وأرحامهم بالحير أفس ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر في
 ضرهم أعظم . فاستدم البذة بطريق البذة وضع الأمور في
 مواضعها بطل سرورك بها .

إن عتاق الخيل وأحوار الطير أدق حساً وأشد اكتراناً ،
 ولكرادن الغلاط والمهامر الثقالب حساً وأقن اكتراناً .
 وليس الصبر بالصمت والسكوت ولا بقلة الصباح والضمور ،
 وقد يصيح تحت الوسط من لا يُقر عى صاحبه ولا يدل على
 عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصباح والهرب والفرس
 العتيق يحدو ولا يصيح ، والحافر كله كطوم ضاغن والمحلل
 كله ضجور صياح ، والصجر في الحنف عام والبخاقي (٤٨)
 أصجر ، فمن الطيلف عام وهو في الضان أخطى . وكل
 مضروب يهارب صياح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب
 والعمير . والهرب من المكروه محمود والمقام عليه مذموم ،
 كاسي يعتري عين السقم ، وتجدد في المرس الكريم ، من قلة
 الاكتران وشدته . وصبر البدن غير صبر النفس ، وليس بقاء

الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ولا
يدل على الكرم . وفي المثل : ما رُوح فلان إلا رُوح كلب .
ويقول العرب : الضَّبُّ أطول شيء ذمّاً ، والكلب لئيم
والضَّبُّ غير كريم . والبازي أكرم من الصقر وأشد وأكثَر
كُتْمًا وأجل جمالاً . وأعشى صيداً وأنبل ثبلاً ، إن قبض
عليه قتله وإن لم يُنَحْ كُنْدَرْتِه (٤٩) عن قربه أو هق نفسه .
ثم يبلغ من دقة طمع البازي وعتقه أنه ينقطع برده للباز ياراً
له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلق بساقيه من رجل
حمل يذرع فيضطرب منكساً إلى الصبح ثم يحده وكأبه لم
يزل على كُنْدَرْتِه وعلى مسقطه الذي يؤتى له .
فليس بدني من أبدان الاحتمال فأنتفك بطول ثباته لك ،
ولا أثبت لك ثبات العير الكلبل الحسن ولا أجعل الصباح
دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتع به وتُدرك به
حاجة نفسك . وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي
فيها دوام لذتك وقام شهوتك . فإن زعمت أن الذي يُثبت
روح دُكْدَن في بدنه وروح القاسم في جسمه ، سرورهما بما
قد احتجنا (٥٠) من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس
ذلك من رسوخ أرواحها في أبدانها ومن شدة الاحتجاج
وقوة الاكتسار ، ففوتق بينها وبين تلك الأموال التي تمسك

أرواحها بالحيل اللطيفة والتدبير النافذ ، وبأن تمضي فيها
حسك الكتاب والسنة . فإنه سهل عقدة أرواحها عقداً
عقداً ، فيعظم أجرك ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتنجيب
به الأمة ، فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ،
وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

تمت الرسالة بعون الله ومَنِّه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته والحمد
له أولاً وآخراً وصواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

فلسفة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أُصْحِبُ اللهُ مُدَّتَكَ السَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ وَقَرْنَهَا بِالْعَافِيَةِ
وَالسَّرُورِ وَوَصَلَهَا بِالنِّعَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي لَا تَحُولُ .
هَذَا كِتَابٌ - أَطَالَ اللهُ بِقَاءِكَ - نَبِيلٌ بَارِعٌ ، فَضِّلَ فِيهِ
مِنْ الْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ ، لَمْ يُسَبِّقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ

* الجاحظ رحمه الله - أول الرسالة في : الحمد لله رب العالمين كما هو أمه
وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله
عليه وعلى آله وسلم كثيراً .

فصل أَوَّلُ الذي تقدم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق
الفرزاء الذي تقدم كتاب فصل الوعد . وإنما كتبت هذه
الكتب وحسنت وبرعت وبدت غيرها ، لما كتبتها شرف
الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأليقة الغريبة والآثار الحسنة
اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق الحمودة والمكارم
الباقية الماثورة ، مع ما تضمنته من سير الملوك والخلفاء
وزورائهم وأتباعهم وما جرت عليه أسوأهم . فأنا أباك
بساطع كرمك وناصع فصلك ، لما امتننت علي بصرف
عنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبجهره والتقصي لمجربها ،
لأشغل التي تعرفك ، فحببك أن تقف على حدودها
وتتعرف معاني أبوابها ، بتصفح أوائلها . فإن معك قلباً به
من اليقظة والدكاء والتوقد والحفظ ما يكفي معه نظراً الحافظ .
إنه لم يخل زمن من الأزمان فيما مضى من القرون الداهية
إلا وفيه علماء محققون ، قد قرأوا كتب من تقدمهم ودارسوا
أهلها ومأرسوا لهم وعابوا المخالفين عليهم ، فحفظوا
الحكمة وعجبوا (٥٠) عبادها ، ووقفوا على حدود العلوم ،
فحفظوا الأمهات والأصول وعرفوا الشرع والفروع ، فقرأوا
ما بين الأشباه والبطائر ، وصاقوا بين الأشكال والأجناس ،
ووصلوا بين المتجاوئ والمتوازي ، واستنبطوا الغامض الباطن

الظاهر البين ، واستطروا على خفي الشكل بالمكتوف
المعروف ، وعرفوا بالصم الثاقب ولعلم الناصع ، وقضت لهم
الحجة بالدكاء والفطنة . فوضعوا الكتب في ضروب العلوم
وفنون الآداب ، لأهل زمانهم والأحلاف من بعدهم ، يزدلفون
بذلك إلى المنة عليهم بفصل المعرفة التي ركبها الله فيهم
وأبأنهم من غيرهم وفضلهم عليهم ، ويبنون به الأمم المخالفة
لهم ، ويتبارون فيما بينهم .

ولهم حساد معارضون من أمثال زمانهم في تلك العلوم
والكتب منتحة يدعون مثل دعاويهم ، قد وسموا أنفسهم
بسيات الباطل وتسموا بأسماء العلم عن الجار من غير حقيقة
ويبسوا لباس الزور متخرفين متشبهين بما لا محصول له ،
يخذلون أمثلة المحققين في زعمهم وهدمهم ويقتنون آثارهم في
هدمهم وأحاطهم وأحرارهم وإشارتهم ، لينسوا إليهم
يخلتوا بخلتهم . فاستألوا بهذه الحجة قلوب ضعفاء العامة
بجهلاء الملوك ، واتخذهم المعادون لملئهم المحققين عدة
يتظاهرون بهم عند العامة . وحمل المدعية للعلم المزور
الحسد على يهت العلماء المحققين وعصبيهم والظمن عليهم ،
حرائمهم على ذلك ما رأوا من صغر تصفة القلوب وأذلة
باس إليهم وميل جهلاء الملوك معهم عليهم . وأملوا أن

رتَّب نفسه إلى القوة على نظائرها والمعرفة بما يُقاربها إن
 ينالوا بذلك تشاشة العامة ، وتستوي لهم لرياسة على طعام
 الناس ورغائهم ، ويستغلوا ورغائهم وقومهم . فمزوا
 وهددوا ، ووردوا على أهل العلم بفبارتهم وكشفوا أعظم
 الجهل عن أنفسهم وفتكوا بقرآن كان مُسدلاً عليهم بالصمت
 فقد قيل الصمت زين العالم ومتر الجاهل - طمعاً في الرياسة
 وحياً لها . وقد قيل :

"حب الرياسة داء لا دواء له . وقيل ما يجد أراضين بالقسم قيل :

ولم يخلُ رمن من الأزمنة من هذه طفة ، ولا يخو . وهلاك
 من هلك من الأمم قيا سلف بحب الرياسة ، وكذلك من
 هلك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحب الرياسة .
 هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تاتي الساعة
 بحسب الأمر والنهي . وحب السمع والطاعة
 فاشكل على العامة أمر العالم الحقيقي والمدعي الجاهل
 والمتحلل لرؤوس ولباطن . ثم ترادف عليهم من هذه الميل
 التي يعنى لها قبيل الواضح والطريق المنشأ على الجاهل
 المستصعب وقري لغنا المسترهف .

ولست آمن - جعلني الله فداء - أن تكون هذه
 الكتب التي أعنى بتأليفها وأناستق في ترصيفها ، يتولى تحريرها
 عليك من قد ليس لباس الرور في انتحال وضع مثلها

فيزداد نشاطاً عند ما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : كل
مجهري في الخلاء يسبق وكل منظر متفرق بالنظر مسرور
وإنما يعرف تجري الحيل عند المسابقة وبراعة النظر عند
المخاصمة .

وقد لي بشر المريسي : عرّض كني على المأمون في
تحليل البيذ ، وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي .
فأنبرى محمد للطعن عليه والمارضة للحجج التي فيه ، وأسهب
في ذلك وخطب وأكثر وأطنب ، فغلق المأمون وخدم
وهاج واضطرم ، لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكان
يجب أن يزعه وازع بكفه بحجة تسكته ، فلما لم ير أحداً
يدب عن كتابي قل من مثلاً :

يا أبا عبد الله من قنبرة تميم خلا لك الجو فيضي وأصفري
ونقشري ما شئت أن تقشري

فما كان إلا ريث فراغه من التمثل بهذه الأبيات حتى
استودن لي ، فدحلت عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمن
ما تقول في البيذ ؟ فقلت : حلّ طلق يا أمير المؤمنين
فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لئن الله قليلة إذا
لم يسكر كثيره . ثم قال : إن محمداً بما لفك ؟ فأقبلت على ابن
أبي العباس ، فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟

قال : لا خلاف بيني وبينك ، كلاماً يرمي به أهل المجلس ،
سجاً لتسلم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل
له . فاستفمت ذلك منه ، وقلت له فإني لا أرى أثر قواه
في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكه أطبت في
معاني تحليل البيذ ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان
قبل دخولي فاطماً لا يسكت . فلما رأى المأمون مكوته عند
حضوره ، مع كثرة كلامه في قلب كتابي وعييه - كانت -
قبل دخولي ، قال مثلاً :

ما لك لا تنبح يا كلب الدوم قد كنت نباحاً فما لك اليوم
ثم نظر إلي فقال : إن الكتب تحول قوم وراءها عندهم
حجج لها ، فما ينبغي أن يقضى على كتاب إلا إذا كانت له
مدفع عنه وخمسم بين عما فيه فإني أناء السقم وأولاد
الأسد محسودون . ثم قال : يا أبا عبد الرحمن لماء كل حاسد
راهن ، وقد قيس في مثل من تلمس : الحسن محسود ،
وفي مثل آخر : لن نعدم الحسنة دائماً ، وقال الأحنف بن
قيس :

ولن تصادف مرعى ممرعاً أمدأ لا وجدت به آثاراً كقول
يقول يعاب في كل حسن ويؤك من فيعيه ذلك . وقال
سريين الخطاب رضي الله عنه : ما أحدث الله لعبده نعمة

إلا وجدت له عليها حاسداً ، ولو أنت امرءاً كان أقوم من
القديح لو وجدت له غايماً . وقال عمر بن عبد العزيز رضي
الله عنه : الحاسد لا يملك عنان حسده ، لأنه مغلوب على
نفسه . وقال الخطاب بن عمير السعدي : الحاسد يحنون
يحسد الحسن والقيح . وقال المهلب بن أبي صفرة : الحسد
شباب ، لا يبالي من أصاب وعلى من وقع .
والعداوة لها عقل تسوس به نفسها ، فينجم قرنها
وتبدي صمحتها ، في وقت هتر ، وإلا فلها كمنة تنتظر
أرمية العرص ، والحسد مسلوب لمقول راء الضمير في كل
حين و زمان ووقت . ومن لؤم الحسد أنه موكل بالأدنى
فالأدنى والأخص والأخص ، والعداوة وإن كانت تصح الحسن
فهي دون الحسد ، لأن العدو المبين قد يحول ولياً منافقاً ،
كما يحول الولي المنافق عدواً مبيناً ، والحسد لا يزول عن
طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعل
فإذا زالت العلة زالت معها ، والحسد تركيب لعله (٥٢)
يحسد عليه ، فهو لا يزول إلا بزواله .

ومن هذا قول معاوية رحمه الله : يمكن أن أرسى أسس
كلهم إلا حاسداً بعمه ، فإنه لا يرضيه بها إلا زوالها .
وأعداء النعمة إذا شربوا فيها وقالوا قتيلاً ترحلوا عسى

عداوتها وكانوا من أهلها الحامدين عنها والآفين عن حماها .
ومن هذا قول المغيرة بن شعبه : النعمة التي يعيش فيها
بعمه محروسة ، ليس عليها قاتر يقتل ولا ذو حسد يحتل
في غيرها . . .
وقال قتبية بن مسلم : خير الخير وأجمنه خير عيش
فيه ، وكل خير كان يوضح بدلاً ، كان من المتالف بمنوعاً ومن
الغير آسأ .

وحسد النعمة إن أعطوا منها وتجبججوا فيها ، اردادوا
عليها غيظاً وبها إغراء . والعداوة خلق وتغل والحسد عض
جديد حرام إذا عطى (٥٣) لا يبيد . فكس حاسد عدو
وليس كل عدو بحاسد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد
عليه السلام - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنه نبي صادق
ورسل بحق يقررون بعثه في قوراثهم ويتدارسونه في بيوت
مدراسهم - الحسد ، وتحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم
فتح لهم الحسد عداوته .

ومن الدليل على أن الحسد آلم وآذى وأوجع وأوضع من
العداوة ، أنه مغرى بفعل الله عز وجل ، والعداوة عدية
من ذلك لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد ، ولا يبعدى
على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحد

عادي أحداً لأنه حسن الصورة جميل المحاسن فصيح اللسان
حسن البيان ، وقد رأيت حاسد هذه الطبقة وسمعت به ،
وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة . فهذا دليل على أن
الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع واعوجاج التركيب
واضطراب السوس .

والحسد أخو الكذب يحريان في مضاري واحد ، فهما أليفان
لا يفترقان وضحيان لا يتباينان . والعسدية قد تحلو من
الكذب ، ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله ، إذ لم
يستحلوا أن يكذبوا عليهم . والحسد لا يسرأ من البهت ،
وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد وأساسه الذي
به البناء يعتمد . وأنشد :

كضرائر الحناء قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لديم
والحسد ناز وقوده الروح لا يبوخ أبداً ، ويعني الوقود
والحسد لا يبلى إلا ببلى المحمود أو الحاسد . والعداوة جمر
يرقد القصب ويطقه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرحوا
الإثابة . والحسد جوهر والعداوة إكتساب . وقال بعضهم
الحسد أنثى لأنه ذليل والعداوة ذكر كبير فحل لأنها عريضة
والحسد وإن كان موكلاً بالأدنى فالأدنى ، فإنه لم يعم منه
الأبعد فالأبعد .

فقد رأينا وشاهدنا من كل يسكن العراق وينتحل العلم
والأدب انتهى إليه خبر مشارك له في الصناعة ، من أهل
خراسان وحمه (٥٤) بلخ ، من اتساق الرياسة له في بلده
وحميل حاله ونبل عمله عند أهل مصره وطعة العامة له
وتزاد الناس عليه ، فطارقته فترقا وأخذته الأرباب
وتفنن الصعداء وانتفض انتفاض الملعن المظور (٥٥) ،
نقل لي رجل من إخواني كان عريسي حين رأى ما رأى
منه : بحق قل من قل : لم ير ظم أشه عطلوم من حاسد
لعمه ، فإن نفسه متصل وكربه دائم وفكرته لا تنام .

وهو في أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وهم أشد لصوقاً
به بغيرهم من الملوك والسوقة . وكان من ماله التقصير في
صناعة العلم عن غايته القصوى ، قد استشعر حسد كل
من يرد عليه ، من طريف أذب أو أنيق كلام أو يديع معنى ،
من قد وقع بخلفه لضعفه وقر في زوعه الخساسته ، أنه
لا ينال أحد منهم رئاسة في صناعة ولا يتبها له سياسة أهلها ،
لا بالطبع على نواصيهم والميب جلتهم والتحيف لحوقهم .

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر الذي يعرف
بضريح الغواني : خيل إلى نوكتي (٥٦) الشعراء أنهم
لا يقضى لهم بحودة الشعر ، إلا هجائي والطعن في شعري

فقد عرفت حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتعربة
والابتلاء ، وإني ربما ألفت الكتاب الحكم المتقن ، في
الدين والفقه والرسائل والسيرة والخشبة والخراج والأحكام
وسائر فنون الحكمة ، وأسبته إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن
فيه جماعة من أهل العلم ، بالحد المركب فيهم ، وهم
يعرفون براعته ونصاعته . و كذا ما يكون هذا مسم
إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه المقدمة على التقديم والتأخير
والخط والرفع والترتيب ، فإنهم يتحسرون عند ذلك احتياج
لأهل المعينة . فإن أمكنتهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب
عند السيد الذي ألف له ، فهو الذي قصده وأرادوه .
فإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب تحميداً نقاباً ونقريباً (٥٢)
بعضاً وحادقاً فطيناً ، وأعجزتهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك
الكتاب ، وألقوا من أعراضه وحرشيه كتاباً وأهدوه
لملك آخر ، ومنتوا إليه به . وهم قد ذمموه وثبّوه ،
ثم رأوه منسوباً إليهم وموسوماً بي .
وربما ألفت الكتاب الذي هو دون في معانيه والفاظه ،
فأخرجه باسم غيره ، وأحيله على من تقدمي عصره ، مثل
من المقنع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن
سليمان والعتابي ومن أشبه هؤلاء ، من مؤلفي الكتب . فيأتي

ولسان يهجي به عرصي ، لا أملك متهماً من غير مجرم ، إلا
ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الطُنُسون والخواطر التي
أومتهم أنه لا يسجل لهم بحودة الشعر ، إلا إذا استعملوا في
ما خيل إليهم .

وأخبرني أستاذي من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي
كان عند الفضل ابن سهل دي الراسقين تمسرو ، فقرأ عليه
كتاباً ألفه ابن نصر بن شميل ، فطعن أبو الصلت فيه . وكان
الفضل عرقاً بالنضر الشعملي واثقاً بعلومه ماثلاً إليه . فاقبل
على أبي الصلت وقال له : إن يحيى بن خالد قال يوماً
إن كتبت لتعرض علي من يغفلت فهمه عن معرفتها ويحس
ذهنه عنها ولا يبلغ أقصى عمه أمانيتها . يعرف
بإسماعيل بن صبيح - فيطعن فيها ولا يدري ما يقرأ عليه
منها ، إلا أن نار الحد قلبه ، فيهدي هذيان المريض ويحس
هرمان امرئ ثم لا يرعى أن يقيب عند أول الطعن
ويملك عه حق ، يستقصي على نفسه إظهار جهله عند أهل
المعرفة باستيعابه انطمس على ما لم يبلغ درايته ولم يحط به
علمه ، ثم ينسبه جهله الطعن الذي تقدم فيها ، ويحس
توكله على استعمال معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه
وأعوانه الذين شهيدوه في أوان طعنه عليها وحين قلبه له .

أرشد القوم بأعيانهم الطاعون على الكتاب الذي كان
أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي ،
ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به ،
ويتدا رسونه بينهم ويتأدبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه
في كتبهم وخطاباتهم ، ويرؤونه عني لغيرهم من طلاب
ذلك الجنس . فثبت لهم به رياسة ، يأنم بهم قوم به لأن لم
يترجم باسمي ولم ينسب إلي تأليفي .

ولما خرج الكتاب من تحت يدي موصفاً كأنه من
حجر أملس ، بمعان لطيفة محكمة وألفاظ شريفة فصيحة ،
فأخاف طعن الحاسدين إن أن نسبته إلي نفسي ، وأحسد
عليه من أهتم بنسبته إلي ، لجودة قظمه وحسن كلامه ،
فأظهره مبهماً غفلاً ، في أعراض أصوار الكتب التي لا يعرف
وضاعتها فينالون عليه اهيبان الرمل ويستبقون إلي قراءته
استباق الخيل يوم الحلبة إلى غايتها .

ونحسد الجاهل أهون شوكة وأذل محنة ، من حسد
الدرف النطن . لأن الحاسد الجاهل يتندر إلى اطعن على
الكتاب في أول وهلة يقرأ عليه ، من قبل استتمام قراءته
ورقة واحدة . ثم لا يرضى بأيسر اطعن وأخفه حق يبلغ
منه إلى أشده وأعظمه ، من قبل أن يقف على فصوله وحروفه .

وليس يثلثه مفسراً مفصلاً ، ولكنه يجعل ذلك ويقول :
هذا خطأ من أوله إلى آخره واطل من ابتدائه إلى انتقضائه .
ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً وطمناً وإطناً في الحمل على
وضع الكتاب ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا
يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به
وبكته بالجهل ، وعلم أنه قد سمع من غير استبراء وقضى ،
غير روية ، فسقط عنه قبطل . والحاسد العارف الذي فيه
صفة وممة مسكة وبه طعم أو حياء ، إذا أراد أن يعقل
الكتاب ويحتال في استعماله ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده
ومفاصله وردد فيه بصره وأزاج فكره وأظهر عند السيد
الذي هو محضرته وجلساته من التثبت والتأني ، حيلة
يقتنص بها قلوبهم ونسباً يستدعي به ألبابهم وسلباً يرتقي به
إلى مراده منهم وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع ، فيؤم
به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربما استدعى بهذه الخاتل
الخدع قلب السيد الحازم .

فمن أعظم اللآيا وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب ،
إذا كان المعارض لها على السيد الذي منه ترجى أمانها وعنده
تتو بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي ومفتها ، من الحسد
والخدق بأسبابه والمعرفة بالوجود التي تثل لمهود وتهده .

غير موافقة على مواضع. ويجعل ما قد تقدم له من الرجوع
قوله عند التبيين له خلاف ما قال ، وثق أسباب عدائه
حكم عري نصفته .

وكان يقال : من لطيف ما يُتدعى به الصدق إظهاره
في الخبر الذي يشك فيه . وكان يذل من عدمص اريه
نرى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن
أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تهمل فرة ، ثم تعود لطعن
أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ويقال :
هذا لو كان عن حسي ما رجع عن الطعن الأول . وقد
: ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها ، يقل ضرره
بصفته كيداً ، لما ساع له في الناس وانتشر منه . فكان
يهم ظنيهاً متبهماً ومطبوخاً عليها ، يستمعون منه على قضاء
المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ولا اصطفاء له . وإنما
في غيبة حذائق المفتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا
يؤمنون . وأصدق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ،
دعوا إليه بالصالح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائل
دعوا للمقول فيه ، وأوكذروا قول القائل ، لأنه لو
عندهم محنة البراءة بما قيل له ، لحبه القائل وردع عن

وتضع منه . ومن كتبه ، لا سيما إن كان مع استبطان الحسد
واستعمال الدهاء والذكاء ، جليلاً لازماً . واثقاً لا يفارق
ومحدثاً لا يريم ، وليست له رعة تحجزه عن الباطل ولا معه
حذر يبعثه على الفكر في العواقب . فإن هذا رجباً وافق
تفترة السيد ، بطول تردد الكلام وكثرة تكراره عليه ،
من تأكيد خطابه وبصرته قوله وذياره عنه واحتجاجة له
فيؤثر في قلبه ويضجع رأيه . فليس للسيد الذي يجب أن
تصير إليه الأمور على حقائقها وتصوّر له الأشياء على هيأتها ،
حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، والإعراض
عهم والاحتجاج دونهم .

وربما بلغ من الحاسد جهده الحسد ، إذ لم يعمل شهوته
ولم تعد سهام لطائفه ، أن يُقر على نفسه بالخطأ ويعترف أن
الطعن الذي كان منه في الكتب عن سهو رعدة ، وأنه لم يكن
بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر من ثم
الدهس ، فلما فرغ له ذهنه وامرأ له مته : راجع وكان يدر
منه عن وهم وخطأ ، لتطن به الرعة ، ويدل إلى لم يرجع عن
قوله واعترف بالخطأ ، إلا من عقل وارع ودين خالص . وإنما
ذلك حيلة منه ودهاء قبيح أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه
ويرطد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب

وَمُظْهِرِ التَّوَقُّفِ قَلِيلُهُ عِنْدَ الْعَامَةِ كَثِيرُهُ ، وَالتَّوَرُّدُ الْمُتَقَرُّدُ
لَا تَكَادُ الْعَامَةُ تَقْبَلُ مِنْهُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنْ عَيَّدَ اللَّهُ
بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ بْنُ مَسْعُودٍ كَانَ مِنْ بَنِي لَهْلَاءِ الْمُفْتَابِينَ وَحَذَاقِهِمْ
حَيْثُ يَقُولُ :

مَسَا تَرَابِ الْأَرْضِ مِنْهُ خَلْقًا
وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحِشْرِ
وَلَا تَعْجِبَا أَنْ تَوْفِيَا وَتُعْظِيَا
فَمَا تُحْشِي الْإِنْسَانَ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
فَلَوْ شِئْتَ أَدَلِي فِيكَ غَيْرَ وَاحِدٍ
عَلَانِيَةً أَوْ خَالٍ ذَلِكَ فِي سِرٍّ
فَإِنْ أَتَا لَمْ آمُرْ وَلَمْ أَنُكِرْ
ضَحَكَتْ لَهُ حَتَّى يَلْحَ فَيَسْتَشِيرِي

وَمِنْ هَذَا سَرَقَ الْعَتَابِيُّ الْمَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :
إِنْ كُنْتُ لَا تَحْذَرُ شَيْئًا لَمْ تَعْرِفْ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَأَخِشْ سَكُوتِي سَامِعًا ضَاحِكًا فَبِكَ لَيْشَوْعٍ أَمْرٍ الْقَائِلِ
مَقَالَةَ السَّوِّءِ إِلَى أَهْلِهَا - أَسْرَعَ مِنْ مَنَحْدَرِ السَّائِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ فَمَوْءٌ بِالْحَقِّ وَبِالسَّاطِلِ
وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مَعْنٍ . كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَبْلُغُ
بِالتَّبَسُّمِ مِنَ الثُّورِيِّ مَا لَا يَبْلُغُ الثُّورِيُّ بِالتَّصْرِيحِ مِنْهُ .

وَسُئِلَ الْقَاسِمُ بْنُ مَعْنٍ عَنِ ابْنِ أَبِي سَيٍّ ، فَقَالَ كَفَّهُ وَقَالَ :
مَنْ النَّاسُ مَنْ يَخْفِي أَبُوهُ وَجَدُّهُ
وَجَدُّهُ أَبِي سَيٍّ كَالْبَدْرِ ظَاهِرٌ
فَلَمْ تَثْبِتْ عَلَيْهِ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَمِّهِ وَلَا مَدْحٌ ، وَقَدْ بَلَغَ
مَا أَرَادَ .

وَسُئِلَ يَوْمًا عَنْ عِلْمِهِ فَقَالَ : أَوْعَى . وَطَبِئًا ، فَإِنْ كَانَ مُحَضًّا
أَوْ مَشُوبًا أَظْهَرَهُ الْوُطْبُ وَمَا خَضَوْهُ
فَإِنْ قَدَحَ - جَعَلَنِي اللَّهُ قَدَاكَ - بِالْحَسَدِ قَادِحٌ ، فَمَا
أَوْلَتْهُ مِنْ كِتَابِي لَكَ وَسَبَقَ إِلَيَّ وَمِمَّا شَكَ فِيهِ ، أَعْمَتِي
لَتَكُنَّةٍ الَّتِي قَدَحَ فِيهَا ، ثُمَّ قَبْلَهُ بِجَوَابِي ، فَبِي أَرْجُو أَلَّا
يُحْتَاجَ إِلَى حَاكِمٍ عِنْدَ تَجَانُّي الْقَوْلَيْنِ بِي . يَدْبِكُ ، لَعَمْرُؤُا الْحَقُّ عَلَى
الْبَاطِلِ وَدَمَوْغُهُ إِيَّاهُ .

وَالْحَسَدُ أَدَلُّ نَفْسًا مِنْ أَنْ يَجَانُّ أَحَدًا ، وَالْعَدَاوَةُ إِنَّمَا
قُدِّمَتْ عَلَيْهِ لِأَنَّهَا عَرِيزَةٌ مَنِيعة . وَيَقُولُ : الْحَسَدُ لَا يَبْدُو إِلَّا
فِي الْعَيْنِ وَعَلَى اللِّسَانِ الْمُقْصُورِ عِنْدَ التَّكْتِفِيقِ عَلَى (٥٨) ، . . .
وَالْعَدَاوَةُ تَبْدُو وَتَتَجَمُّ قُرُونَهَا وَيَنْبَسِطُ لِسَانُهَا ، عِنْدَ الْمَوَافِقِ
لَهُ وَالْمُخَالَفِ عَلَيْهِ .

وَسُئِلَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ عَنْ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ فَقَالَ : ذَاكَ
أَمْرٌ سَيْطٌ بِالْحَسَدِ وَجَبَلٌ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ لَهُ أَحٌ فِي السِّرِّ وَلَا

عدو في العلانية.

وسئل العتاني عن أهل بغداد فقال : حساد ، إخوان العلانية وأعداء السريرة ، يطوبك الكن وتبعونك القل . وما يدل ذلك على أن الحسد أحسن وأعين من العداوة أن الملل كلها دمه وعابته . ولا تعلم أن شاداً من الشواد وشاداً من الشراء ، فضلاً عن حيل من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عاد من عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها . ثم عظم شأن العداوة عندهم وجل قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في سبيلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم من أمر بها على الحرم ولعل . وقال الشعبي لبشر مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل اربيد ، وكان شتمه ، من يأتيك به سحاً وجراً . فقل بشر . إني مستعمل في عدوتي قول القائل :

وعاد إذ عاديت بالحرم والنهي

كنل ظفراً ممز تويد وتعلب

فكان هذا من يرى المعادة بالجزء وبعده لها بالعقل والتأني . وكان عروة بن المعيرة يقول : شر العداوة ما ستر بالمدارة وأشفاهها للأبصار ما قريع بمثلها نادياً . وكان ينشد :

لا أنتقي الضفائس الرقي

فعل الذل ولو بقيت وحيداً

لكن أعداء له ضعفن مثلها
حتى أدري ما الحقود حقوقها
كالخمر خير دوائها منها بها

تشفي السقم وتبرئ المنجودا

فانتهى قوله إلى ابن شبرمة فقال : لا در عروة هذه أنفس العرب . فهو لاء وأوا كشف المعادة ولم يروا التأني . ومنهم من رأى المعادة بعد الفير منها والإعذار فيها ، وإن هي أبت إلا المقارنة قارنوها بمثلها . فقل شبيب بن شيبه : إذا رأيت اشراً قد أقبل إليك فتطامر له حتى يتخطك ، ولا تهجنه ولا تنحت عنه ، فإن أبى إلا أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلقى . وأنشد :

إد عدك محتنيك لبيب فعاد النوم واحترس البياء
ولا تثر الربوص (٥٩) وخل عنها وإن ثارت فكن شبحاً مواتاً
تحول إلى سواك وبع عنها فخير الشر أسرع قوة
وإن مالت عليك وخفت منها فواجهها محامرة صلاة
ومنهم من أمر بقبول الإصاف وترك الحاسبة . قال
عبيد الله بن عبد الله بن مسعود : إن الملامات والمذمات كلها
فبيحة ، وأقمح الملامة والمذمة ما كتبا في ترك بصمة أو شدة

منافسة في تعداد الذنوب ، وأنشأ يقول :

منافسة العدو ، أو الصديق ، تجري إلى اللذمة والبلامة
إذا أعطاك تصفاً ذو وداد ، وبعض النصف فانتبه السلامه
ومنهم من قال : لا تعرض من عدوك إلا بالطم ، ولا تقبل
إنصافه ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم ، ولو أنصفوا حتى تعق وتظلموا
ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه .
قال : حدثني إبراهيم بن شعبة الخزومي ، قال : سمعت من
حكى لي عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد
لطمت عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك .
وأشد :

إذا برك الزمان على عدو ، بسكبه أعتت له الرمان

قال العتائي : قلت لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر
ومن صناعة الرمان السلب ، فإذا حملت الأيام على عدوك
ثقل وأمكنك منه ، فرددته ثقل إلى ثقله . قال : فقال لي
طوق : من لم يشهر من عدوه انتهر مته ، وحالت الأيام التي
كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما ظنيت يثائر حران ليس على التراب برافد
أحقدته ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نوم الحافد

إن تمكن الأيام منك وعلتها يوماً وفك بالصواع الزائد
ولئن سلمت لأتركك عارضاً ، بعدي لكل مسلم ومعانيد
ومنهم من كان يرى جبر كسر العدو وإقالة عثرته
وتصريفه عند وثوب الدهر عليه . قال : حدثني ابن عبد
حميد ، قال ابن شبرمة : كنت لحرب يوم صفين بين العرب
مخضة لا شوب فيها ، فكانت محاربتهم كراً واعتناقاً ،
كانوا دأمرؤا برجل جريح كانوا يملون : خذله قومه
بصروه وألقاه دهره بمصيبة فردوه لي أهله .

وقال ابن شبرمة : ما زلتا نسمع أيت المصيبات . فتزع

سجيات . فقال : وأشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

لو بي بدأتم قبل من قد دعوت

لمرجئها وحدي ولو بلغت جهدي

امرء ذو لقربي وذو الجند أجهفت

به غنة جملة مصيبته جمدي

ومنهم من رأى الإفضال على عدوه وترك مجازاته ، وهذا

شبه لا يحتاج فيه إلى استقصاء شواهد .

قال غيلان بن غرشة الضبي ، وقد بلغ بعضهم بل الأحنف

فيس : لا يزال العرب بخير مما ليست العرائم وتقلبت

سيوف وزكيت الخيل ولم تأخذها حية الأوغاد . قيل : وما

قول : شديد منه ، فأنشده :

وإنا لقوم ما نعوذ خيلنا
وتسكروم الروح ألوان خيلنا
من الطعن حق بحسب الجور أنشعرا
صحاوار لا مستنكر أن نسعرا
وليس بمروء لنا أن نودها
وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرها
بنسنا السباء محسدا وسأؤثا
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟
فقال : إلى الجنسة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى

الجنة إن شاء الله . ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له
ولا خير في حلم إذا لم يكن له
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فطن الله فثاك
فأنت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أنثرت
أخرى مكاهسا ، لسمعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا
حسن ما روي في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلي :

صفنا صن بني ذميل وقلنا القوم إخوان
س الأيتام أنت برجه من حين كالذي كانوا
للسا صرخ الشر وأمسى وهو غرثا
شينا مقبلة ب اللبث بعد اللبث وغيبان

حيته الأوغاد ؟ قال : أن يروا الحلم فلا والتوا لمب ضبا .

وقال الشعبي لرسول قال له : ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك

ونصت لك . فقال :

ليست الأحلام في حال لرضا إما الأحلام في حال التعصب
وأشدني بعض العلماء بيتين ، وقال : إن الرهري كان

كثيرا ما يتمثل بها :

وإني لأعد نفسي على المقت ولقي
أدب وأرمي بأطعما من ورائهم
وأبدا ما لا نى لهم وأعود

وكان عبد الله بن عمرو أنشد :

إني وإن كان ابن عجمي كاشعا لم أجه من دونه وورائه
ومعيرة نصري وإن كان امرؤا متجرحا في أرضه وبعائه
وإن أكسى ثوبا نسيما لم أقل : يا ليت أن علي حسن ودائه
وإذا تحرق في غناه وقرنه وإذا تصملك كست من قرائه
قال : هذا والله من شعر الأشراف ، ففى عين نفسه الحمد

واللوم والأنتقام عند الإمكان والمسالمة عند الحاجة .

ومنها من أمر بالسفه في العداوة ، واجتماع الحرق فيها .
حدثني نوح ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس ،
قال : حساء السابقة الحمدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقال : هل ملك من الشعر مساعنى الله عنه ؟ قال : نعم .

بضرب فيه توهين وتصجيع وإذعان
وطعن كغم الزرق وما والرق ملاك
وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان
حدثنا أبو مسهر ، عن أبيه ، عن خالد بن عمرو الكلي ،
قال : كما مع أبي برزة الأسلمي في عره ، فكان مثا رجل
يتار لنا الميرة ويقوم بجوئنا ، فإذا أقبل قلد . جزاك الله
خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك لى أبي برزة ، فقال
أبو برزة : كما نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ،
فقلبوا له . فكما نقول له إذا أتاها الحوائج : جرك الله شراً
وعسراً ، فيضحك سلك .

وأشدني رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم في بعض المواطن ذلة وفي بعضها عزاً يشرف قاعه
إذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلاً سفيهاً ولم تفرق به من يجاهد
ليست له ثوب المذلة صاغراً فأصبح قد أودى بحقك باطلاً
فأبقى على جهال قومك أنه لكن حكيم موطن هو جاهله
وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : استوصوا
بالفوعة خيراً ، فإنهم يطعنون الحريق ويسدون البثوق .

وقال أبو سلمى في الجاهلية :
لا بد للسود من رماح ومن هداه يتقى بالراح
ومن كلاب جمة النباح
وقد مسم بن الوليد .

حلقت لئن لم تكفي سفهاء خراعة عريشان عوف وأسلم
لأرجعن الودة بيني وبينها يقافية تحري العروق فتحسم
من اللاء لا يرجعن لا شوارداً هن بأمواء لرجال تهمهم
أصابوا حليفاً فاستعدوا بجاهل اد الحاد لم يمنعك ولجهن أحزم
ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة في هذا الكتاب ، ولو
استقصينا لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي ، ان بلوغ الغاية في
تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرضاً ما دل على معناه
الذي إليه قصد .

ولم نرا الحسد أمر به أحد من العرب والعجم في حال من
الأحوال ، ولا ندب إليه ونبه عليه . وقد نبه على العداوة ،
وفصل بين أحوالها بما قد بيناه ، فظهر فضلها على الحسد
بذلك .

وكنتم امرأة قليل الحساد حتى اعتصمت بعروقتك
واستمسكت بحبلك وأستذرات في ظلمتك ، فتراكم علي

الحساد وأردحوا ، وروموني بسبهم من كل أوبى وأفقى ،
وتتابعوا على قتايبع ، لتأثر على مشتر العسل . ولئن كثروا
لقد كثر هبوب ريحك اخوي ، وبسفرة أيامك وزهرة دولتك
تخلاني . وأنا كما قلت :

فاكثرت حسادي وأكثرت خلتي
وكنت وحسادي قليل وخليتي

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل
عليّ عشرة نفر من الكتاب ، قد شملهم معروفك ورفع
مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والحة لك على حسب
ما أوليتهم من احسانك وجزير قوائدك . فافوضوا في
حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوبا
افتتوا فيها ، وأحدث ذو شجون . فما برحوا حتى أتني
رقعة أناسية من الحساد ، فيها سهام الوعيد ومقدمات
التهديد والتحذير والتخويف لطعن على ما أولفت من الكتب ،
ان أنا لم أصبني لهم الشركة فيما يجري عليّ . فدفعت رقتهم الى
من قرب اليّ منهم ، فقرأهم ثم قال : قتلهم الله أبطلهم يرومون
النيل ويلتمسون الشركة في المعروف . لنزع بالكلاليب أهون
من بذل معروف بتهيب . وأنشأ يقول :

أما الحوادث من خلتي لك مثل جندلة المراجع
قد رامي الأعداء قب لك فدمتعت من المطالم
ودفعها الى من قرب منه فقرأها ، وقال الثاني : صكة
جلود لكل مرعد حسود يستمطر المعروف بالتهديد ، نخل
ابوعيد يذهب في البيد . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعده يا يزيد دفا وعيدك لي بضائر
ودفعها الى الثالث فقرأها وقال : سألوا ظلما وخوفا
هضم لقوا حربا ولقيت حلما . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
ودفعها الى الرابع فقرأها وقال : قول الدليل ووبله
سنان . وأنشأ يقول :
ما ضرّ تغلب وائل أمجوتها . أم بليت قناطح البحران
ودفعها الى الخامس فقرأها وقال : نهيق الحمار ودم الأعيار ،
جبار جبار . وأنشأ يقول :

ما أبالي أبى بالحزن نيس . أم لحاني بظهر غيب لثم
ودفعها الى السادس فقرأها وقال : إدا علقنت الأجد
فليهن عليك الحساد . وأنشأ يقول :

إدا أهل الكرامة أكرموني فسلا أخشى الهوان من اللثام

ودفعها إلى السابغ فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة تمن
هو في ذي النعمة . وأنشأ يقول :

كم تنبحون وما يغني نباحكم
ما يملك الكلب غير النبح من ضرر
ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : توكل هلكي ، لم يعرفوا
خبرك ولا أدروا أمرك . وأنشأ يقول :

قلو علم الكلاب بنو الكلاب
بجالك عند سيدنا لدلوا

وعندي صديق لي من السوفة له أدب ، فقال لي يعقب
فرغهم مسيراً : إن هؤلاء لكتاب قد أظهروا الاستخفاف
بقول الحساد ، وضربوا الأمثال في مواسم عليك ، وعرفوا
أهلك في منعة من عز أبي الحسن - أطال الله بقاءه - ومعقر
لا يسامى ولا يتال ، وأنه أقول بالشفقة :
توق قوماً من الحساد قد قصروا

لخط قدرك في سر وفي علن
فقلت له : إني أقول بيتين مما جوابك وجواب الحساد :
إن ابن يحيى عند الله أمني
من الحوادث بعبد الخوف من زمي

فست أحذر حسادي وإن كذا
ما دمت بمسك حبل من أبي الحسن
قلبا رأي صديقي افتتاهم آثار الكتاب ، واستهانتي
بالحساد عند اعتلاقي بحبالك - أعزك الله - أنشأ مثملاً
يقول بشعر نصر بن سيار :

إني نشأت وحسادي ذبور عسدي
يا ذا المخرج لا تقص لهم عددا
إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم
فقل حسن بلاني جئري الحساد

وليس العجب أن يكثروا دعواؤه أنعق بمسالك وأهتف
بشكرك ، ولكن العجب كيف لا تنفت أكنادهم كدأ . وكان
بعضهم يقول : اللهم كثر حسد ولدي ، فإنهم لا يكثر
إلا بكثرة النعمة . فإن كان وسي سق منه هذا الدعاء ،
فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى زمن عرك ، فقد رأينا تباشيرها
وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل أولدي تحسودين
ولا تجعلهم مرحومين ، فإن يوم المحسود يوم عزه ويوم الحاسد
يوم دله .

ويقال إنه لما مات لحجاج سمعوا جارية خف جنازته
وهي تقول :

اليوم برحمتنا من كان يحسنا
واليوم تشع من كانوا لنا قبيحا
ويقال إن زيدا بن أبيه قال للحرقمة : بنة انتعان : أخبريني
بجالك ، قالت : إن شئت أجلت وإن شئت فسرت ، فقال
لها : أجلي ، فقالت : بلما ' محسدا وأصبحنا ' مرحم . فخطبها
زيد . وكانت في دير لها . فكشفت عن رأس ، فإذا رأس
مخلوق ، فقالت : أأرأس عروسي كما ترى يا زيدا ؟ وأعطاهما
دنانير فأخذتها وقالت : جزقك يده افتقرت بعد غشى ، ولا
جزقك يد استعنت بعد فقر .

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا في اثنين ، رجل آتاه الله
حفظ القرآن فهو يقوم به آتاه الليل وآتاه النهار ، ورجل آتاه
الله مالا فهو ينفقه في وجوه البر آتاه الليل وآتاه النهار . فهذا
الحسد إنما هو في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله
عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف :

احسد على نيل لمكارم والعلل
إذ لم تكن في حالة المحود
حسد انقى في المكرمات لغيره

ككرم ولكن ليس بالمعدود
فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزدك الله شرفاً
وفضلاً وعلماً ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذي يهدي إليك
الكتب ، ويتحف بنوادير العلوم وفرائد الآداب إنه قريب
محيب (*) .

* تم الكتاب والله المنة وبهذه الجول والقوة .

شرح الكلمات العويصة التي اشترس عليها هذا الكتاب

١ - الحكمة :

تتد معاني هذه الكلمة حتى تشتت كثيراً ولكن لاصطلاح
جزره وكف يدها وكاد يقصرها على الطب ، والجاحظ هنا
لا يعني بها إلا العدة والموعظة والزجر والكف عما لا يعني .

يقال : حكّمه : أوقفه عند حده كأن الحكمة عقل للجمل
أو لجام للفرس وكان العرب في جاهليتهم كادوا يحصرونها بهذا
المعنى إذ نسمع شاعراً يتوعد بني حنيفة (إحدى قبائل نجد
رهط مسيلة) بقوله :

أبني حنيفة حكّموا صفهم ،
إني أخاف عليكم أن أغضب

أبي حبيبة أبي إن أمجكم

ادع اليامة لا توارى أرنبا

أي حولوا بين سماءكم وبين التعرض لعشيرتنا خشية أن
يخرجوني فقصم لحومكم هجواً ودماءً وبدفعوني إلى هابوية غضب
قد تدبر أرباضكم وتجعل اليامة - إحدى محاضرات نجد - قاعاً
صفصاً لا يستطيع الأرنب أن يجد بها ملجأ أي لا يبقى بها
حجر على حجر !

ثم اتسعت كلمة حكمة بعد الاسلام فأطلقت على الوحي ،
كما أصبحت ترادف كلمة (فلسفة) !

٢ - الخلق للأعراض ، لذة ، جدة :

الخلق للأعراض ، الذي يجعل الأعراض خيراً أي بالياً ،
والأعراض هي موضع القدح والذم من الرجل ، يقصد أن تسلط
اللهو على الشخص يجعل عرضه أي كرامته - بالياً أي قديماً
مهترئاً يعني أن لسان إذا أطاع سلطان هوى ومال مع
النفس الأمارة ، تسقص قدره وأوغل الدس في تناول لحمه بعم
لقدح والطمع والتحفيف (الظلم) أي التقيص الذي قد يبلغ
به الطاعون فيقلب جوراً وظلماً واجحافاً ويعني بذلك كله
أن الناس يطمعون بكرامة من يخفي عنقه لسلطان الهوى وينهيب

وقته في ما لا يجدي وتصبح اللذة الخصومة متعلبة على
تصرفاته وينفق (الجدة) المال في ما لا يعود عليه ولا على
أمرته وقومه بفائدة .

والجاحظ يقصد أنه عرف ابن أبي دؤاد في شرح الشباب
وشاهد منه مكارم الأخلاق في الوقت الذي كان به سلطان
الهوى واللهو يعيش بأخلاق أمثاله من الشباب المستسلمين
للأهواء وكان سكر الشباب واجدة من ينقصان المال والمروءة
مستولين على تصرفاتهم بحيلان علاقتهم مع المجتمع خصومة .

كان الجاحظ أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

ن الشباب والفراغ والجدة

مفسدة للمرء أي مفسدة

بل يعلب على ظني أن الشاعر أخذ هذا المعنى من أبي عثمان .

٣ - ويحيل الله عقلك :

ألا ما أجل وألد وأسقى وأنعم هذا المعنى الذي أرى
حق طبعه محفوظاً للجاحظ !

نعم ، العقل وكيل الله في الإنسان إذ هو موجود غير محصور بحجة - كما أن الله تعالى عن الحصر والحيث - هذا العقل العجيب الذي جعله الله في الحيوان غريزياً محدوداً أو محسوساً (كعقال الجمل - اعقلها وقول) وفي الإنسان معنوياً يعقله عن التجاوز أي يحول بينه وبين التجاوز كما يحول عقال الجمل بينه وبين انتفاص شجر الجاورين مثلاً .

هذا الإنسان - مخلوق العجيب - الذي انفرد دون سائر المخلوقات بالتخير في تصرفاته ، قد يدرك مهمة وكيل الله فيه ، فيقف عند حدوده ويصدق بتوجيهه وقد يضع حبه على غاربه غير آبه لرقابة الله ولو كيلة ضارباً بها عرض الحائط مع قدرته على كبح جماح نفسه وكفكفة تصرفه . وهكذا يرى - وكيل الله في الإنسان - حارساً أعزل لا يقف دون التصرفات المشوهة وإن استطاع أن يعمل بما دعواته خيراً ووجداناً ومروءة ، عقارب لداعة وثعابين نهشة ، قد لا يشعر بها من تلك حساسه وقال بلبل حاله :

أنا الغريق وما خوفي من البلبل !

٤ - الفبظة نوع من الحسد غير المدموم إذ العابط من نفس

مثل نعمة أخيه مع تمي حوام النمل على أخيه ، فكان الفبظة نوع من التسابق وضرب من التماس في المكرم !

٥ - الرائد في الأصل هو الذي يرسله قومه أمام ظعنهم (قافلة سفرهم) ليرتاد المواقف الغد بالماء والكلأ والمشب والحشيش) كيلا يزلوا أرضاً مواتاً مجدبة أو أشد جدباً وجفافاً من الأرض التي قد رعوها فتفسد كارتهم وفي الكدات النبوة (الرائد لا يكذب أهله) إذ لو كذبتهم لدقمهم - ودفع نهمه - شطر كارثة محققة .

وقد تطلق كلمة (رائد) اصطلاحاً على مقدم القوم وقائدهم وموجههم وصليتهم وعمود جهدهم الاجتماعي أو القومي أو الروحي .

٦ - النانة : المصيبة ، الكثرة ، النازلة وجمعها نوائب وقائبات .

٧ - عجمت مذاهبك أي بدلت أمرك واختبرت حالك ، يقاب : عجم عوده أي عضة ليعلم حلايته يعني أنه جرحه وعرف دخائله وما تنطوي عليه نفسه وما يدور بخلة ويتلجلج في خنايا نفسه وما يخفي صدره .

٨ - حذفنا من هنا كلمة (إليك) ليستقيم المبنى حيث

القوم ، تنازعوا ثلاثين مائة ، وفي مثل (من لا يحسب الله فقد عاداك) .

١٦ - زكنت : قطعت ، تفرقت ، فُتت ، زكنت منه اي علبت منه عداوة واستغنى محاولة النفس ، والمضى الاجمالي البيت : علمت من اسرار خصامي مثل الذي علموا من سر بري وفطنت وتقرست وفُتت من اسرارهم مثل الذي علموا من اسراري وبذلك أصبحت حذراً غير متباب ولا وجل من مفاجاتهم ولذلك لم يستطيعوا العندي على حين غفلة ولن كنت اذا جيتهم (أظهر لهم الصداقة في لسان) .

١٧ - تقول : ضمد ، يمد نفسك توقدت (صعدت) سلقم الفضائل شارفت (كدت قبيل) أمداه فأصبحت منقطع للفرين .
١٨ - وأقمت : واجتدر وفي الكلمات النبوية (من باع داراً او عقاراً ولم يضع ثمنه في مثله فهو مال قين) اي عساط

بالفرط والصياح وجدير بعدم البقاء .
١٩ - أسومك : اكفلك : التضحية : الصلابة : والزمانة :

الوقار ، يريدانه صلب الموت ثابت لا يتزعزع جليل وقور .
٢٠ - يزينه : يكفه ، يريدان الهائل يسك لسانه ويشده بخطام (زمام) ويشكله اي يعرقل سيره وينهه حر كنهه في ما لا ينبغي به الحركة .

كان بهذا النص (فالت لك كتابي هذا اليك) ولا يخفى ان هذا من قواعد الفسخ والخطأ الناتج كما ذكرنا هذا في مطلع هذا الكتاب .

٩ - نجنة : وقاية وسنن وفي القرآن الكرم (اتخذوا ايمانهم جنة) .

١٠ - الاماني ، طلب شئ لم تقدم أسبابه ونشد صدقه ، أما الأمل فطلب شيء مهتداً لمصلحته ، فروع القمع في المومنين وانتشار السنين أمل وتفرط المروع وقصوره في ربح مع انتظار المومنين امان .

١١ - الاستطراف وهو الطرف وهو الحديث الجديد

للمستحسن .

١٢ - تنوق في مطعمه أو ملبسه ... فانتق وتجوّد وطلب الاحاسن وقمعت الاتقان .

١٣ - تبار القوم (بتشديد الراء) أبر بعضهم بعضاً مثل تعاطفوا وتبادوا وقواسم ...
١٤ - الحانة ، جمع خائن ، تجمع على خائن وخائنة وخونة .

١٥ - لا تخافلان فلا فلا ، فاعده ، مانعه ، لا رمة ، فلاسا

٢١ - لسع الدُّبُر أي الزنا بغير أو النحل ، والإشفاق المحرور
أو المثقب وجمعه أشافي .

٢٢ - الدن : وعاء كبير من خزف يوضع به الزيت أو الخمر
يقول الحريري يوصف البصرة .

فصل انت شئت فيها من يصلي
وإما شئت فسمت من الدنان

٢٣ - تخت الأمانة : خانها يريد هنا أنه أفشى السر وأذاعه .

٢٤ - الطمور والطومار : لصحيفة وجمع طوامير .

٢٥ - هذا النص ليس في سفر سليمان أو سواء من أسفار
العهد القديم ويظهر أن الجاحظ سمعه أو رآه في كتاب ما فنقله
قائلاً (والعهدة على الراوي) .

٢٦ - القتيت : الكذب والنميمة .

٢٧ - المئنته : المشقة وتكليف ما لا يكاد يطاق .

٢٨ - قلاء : بغضه ، وفي القرآن الكريم (ما ودعك ربك
وما قلى) أي ما تركك وما بعضك .

٢٩ - الأشنع الأبلق : كناية عما ليس واقعياً من الأخبار

أو ما لا يمكن الحصول عليه .

٣٠ - النبوة : الخطيئة ، وتصريحاً القطيعة ، (لكل

صارم نبوة) أي خطيئة وعدم إسابة .

٣١ - الدغل : الحقد الباطن يرتس النقائص أو اختلافاها .

والتغل : الأفساد .

٣٢ - أخرج الحشبة من عينك أولاً ... هذا هو النص

الانجيلي وإن ذكره الجاحظ بالمعنى كمادته .

٣٣ - العضية : الكذب والسبحة والسحر باللسان وهو نوع

من التخدير أو الفس أو التوجيه المتلوي .

٣٤ - قصبه : شتمه .

٣٥ - القسبة : كثرة الكلام في ما لا يعني ورجل قيقاب

مثل ثرثار وزناً ومعنى .

٣٦ - المرأة : بقوة ، وفي القرآن الكريم (فومرة) :

صاحب قوة . قل محمود سامي هـ البارودي الشاعر والبطل

العربي . مصري مدح أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي بن أبي

طالب ووصف موقفه وموقف الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى

الله عليه وآله وسلم منه :

قال النبي لأعطي رأيي رجلاً

يحيني ويحب الله ذا الكرم

قائمة (يفتح الله الحصون على يديه ليس بفرار ولا برم

وما أتى الصبح إلا والزعيم على جيش العدو على رافع العلم

٣٧ - هذا المقطع من السطر الرابع حتى الرابع عشر استوقفني طويلاً وعاديت قراءته بتأن وعمق مراراً إذ اشتمل على إشارات اتخذها الجاحظ كوسيلة للتوصل .
نفذت لمغزى بعضها من فقرة شهرتها التاريخية كقوله :

١ - واعنت على قتل المعتصم :

يعني المعتصم العباسي بن هارون الرشيد، ويظهر ان الاعانة على قتله كانت حينذاك جريمة في عين الشعب لشجاعته ونجدة لا سيما في المواقع الحاسمة التي أشار لها أبو تمام الجوراني .

٢ - وغضبت لمصرع الافشين :

وهو الثائر البوذي الذي كان يزعم لنفسه الألوهية تجسداً

أو تجلياً أو تجسماً أو ثانياً أو انداقاً أو فيضاً أو سوى ذلك من الفلسفات التي كانت ولا تزال تدور في أفكار رافعي المخلوقات الى مصاف الخالق .

طبعاً الغضب لمصرعه كان - ولا يزال خطيئة - إذ امتدت ثورته الجائحة من التركستان للدين وكاد يستنفذ قوة الدولة ويشغلها عما سواه .

أما قوله : ورفقت حمزه ، فيعني ابن عبد المطلب في استشهاده للشير وقص هند (آفة الأكباد) والدة معاوية وزوجة صخر وجدة يزيد .

وأما بقية الاشارات التي أوردها الجاحظ في هذا المقطع فقد فاتني معرفة القصد منها إذ ليس لها من الشهرة التاريخية ما يساعدني على التنقيب للظفر بها .

٣٨ - فتابع : رمى نفسه دون اثبات .

٣٩ - وامق : محب .

٤٠ - لحن القول هنا ، ما يكاد ينطق به الوجه حين التكلم باللسان إذ قد يقيم اللسان دليلاً على الصدق والمودة والاخلاص ولكن الوجه بتبسمه الظاهر التكلف يصرح بما كمن في الصدر ودفن في اعماق النفس .

وكثيراً ما شار الجاحظ لهذا بما قرأه في وجوه حاسديه

فقال (وما لقيت حاسداً الا تبين مكنونه بتغيير لونه ونحوه
وجهه) ولكن الامتحان يظهر حقيقته وينزع أرديته .

٤١ - السئى : الرجل الرقيق أو جواره ، والمقصود لا
يحول دون هلاكي ان يحبرني رجل رقيق المنزلة .

٤٢ - المفازة : الصحراء ، وهي في الأصل مهلكة ولكن
دعيت مفازة من باب الأضداد أو التفاضل كما دعيت الجمال
المسافرة قافلة (اي عائدة) ويقصد بمفازة المهلب عفوه وحلمه .

٤٣ - صاحب الزرق : صاحب الخدعة .

٤٤ - هذا المقطع كالمقطع ذي الرقم ٣٧ اشاره الجاحظ
لما نعلم من قصص زياد بن سمية أو ابن ابيه وقصص الحجاج بن
يوسف وابن العاص وابن هند وقيصر في قصة خدعة (زينب :
الزيماء) وحوادث الاسكندر في معركته الحاسمة التي دارت
رحاها على ملك فارس . دارا : داربوس وختنها الجاحظ بما اشتهر
من رقى الهند وسحر بابل .

والرقية كلمات يرددنها الكاهن أو العراف على احد المصابين

بمرض فيزعم المريض لشدة تسلط الهم والايحاء انه قاتل
للشفاء .

ومن أجمل ما نرى ان عبد الملك بن مروان اصيب بصداء
الأنسر فقال (هل من راقٍ) فأحضر له الراقي بديح ومشرع
يقرأ وينقث ويتم بكلمات كالطلاسم .

قال عبد الملك احسب بالشفاء فقلت يا بديح اكتب لنا
هذه الرقية خشية ان يعاودنا هذا المرض ليلاً فأجاب : عجل
بجائزتي ، وما ان اخذ بديح اربعة آلاف درهم حتى شرع
يقفه قائلاً .

(الطلاق يلزمي أين كنت اقول :)

ثبت ان فتاة كنت اخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول
اما السحر فهو عمل بالخفاء أو عمل بلباقة أو توجيه باللسان
لما يضر وما يزعمونه من الكتابة التي تؤثر في محبة فلان أو
بغض فلان فلا أصل له .

حدثني صديق يدعى الشيخ أحمد بما نصه :

طرقت بابي امرأة وقدمت ليذة طالبة سحر تسيطر به
على زوجها وما ان حاولت اقناعها بأن هذا فن لا أصل له
وان سيطرتك على الزوج لا سبيل لها إلا مكارم الاخلاق حتى

أصررت وزعمت أنني أحاول طلب مزيد من المال .
وهنا أخذت الليرة وتناولت قلماً ووريقة وكتبت ما يلي :
(الذي يصلح يصلح حاله والذي يفسد يفسد حاله ، الشيخ
أحمد اخذ مصاري يشتري خبز لعياله) .

ثم تناولتها (السحر الوريقة) وذهبت الى حيث ..

٤٥ - هذا المقطع من (ان الكلام .. حتى من تيلم) جيد
المعنى ولكن ليس متناسباً مع السياق ويظهر انه دخيل .

٤٦ - بهذا المقطع اشارات لحوادث وأعلام ليست شهيرة
وللقارئ ان يلحقه بمقطعي ٣٧ و ٤٤ اما كلمة (ستبديز) التي
لم اعثرها على معنى فتذكرني بالشيخ التركي الذي اخذ يفسر آية
(والسواء ذات الحبيك) قائلاً :

السواء ، هي السواء ، وذات بمعنى صاحبة ، أما الحبيك فلا
نعرفها نحن ولا انتم ! .

٤٧ - في القوم وكال ، أي يتكل بعضهم على بعض فتضيع
أموالهم وتفسد خططهم .

٤٨ - البخاتي نوع من الجمال ناتج من أب عربي وأم فارسية
وهو نوع شديد القوة مريع الرمل .

٤٩ - الكندرة (بفتح الكاف) مكان يجثم به البازي ليرتفع
عن الأرض يعني بذلك المكان الذي يأوي له البازي أو يستقط

فيه حين يصيبه الوهم ، وهو حين يرمي به عنق الدابة
فيطرحها ، يقال (أوهق فلان نفسه : رماها بالوهم) أي
أهلكها ودهورها .

٥٠ - احتجن المال الذي — يديه احتفظ لنفسه بشيء

منه .

٥١ - عجم العود : كناية عن التجربة والاختيار كما مر .

٥٢ - لعله سقط (ما) والأصل (لعله ما) يحسد عليه .

٥٣ - كذا في الأصل ولعلها إذا أعطى .

٥٤ - لعلها جهة أو قصبة .

٥٥ - المعلنس والمطور بمعنى واحد ، يعنيان المجرّب

الخبير .

٥٦ - النوكى المحقى .

٥٧ - النقريس الدليل الخافق يعني هنا العلامة المدقق .

٥٨ - بياض في الأصل بمقدار كلمة .

٥٩ - الرّوض : القرى الكبيرة ويقصد هنا سكانها .

فهرست الكتاب

صفحة

•	مقدمة
٢٢	فلسفة المعاد والمعاش
٦٣	كتبان السر وحفظ اللسان
٩٥	فلسفة الجدل والمزلة
١٣٩	فلسفة فصل ما بين العداوة والحد
١٧٣	شرح الكلمات

AL-MIS TAFI. (141)